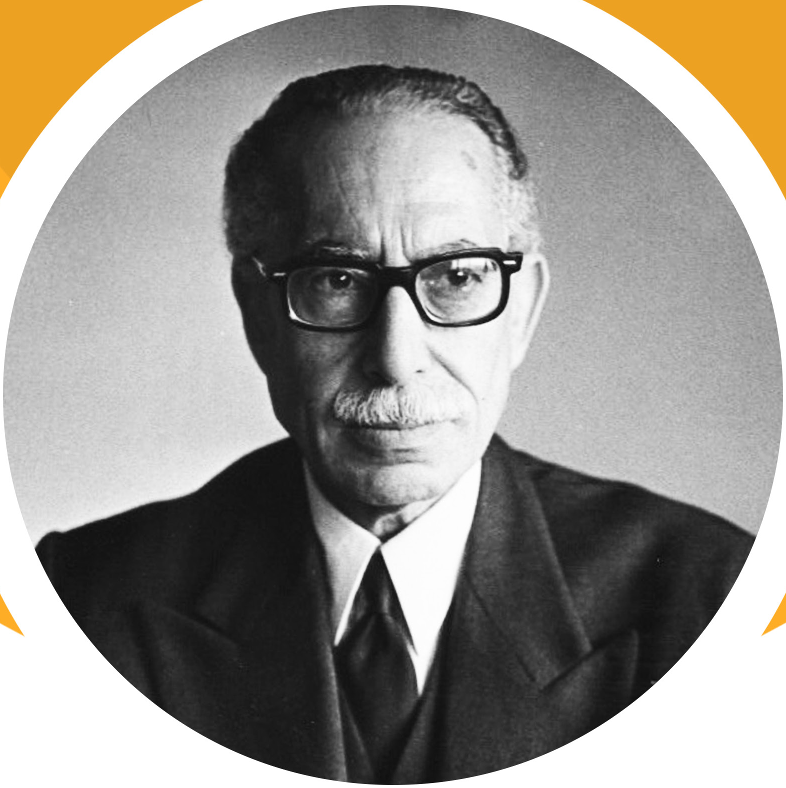

عصفور من الشرق

توفيق الحكيم

عصفور من الشرق

تأليف
توفيق الحكيم

هنداوي

عصفور من الشرق

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٢٦٤ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	١٧
الفصل الثالث	٢٥
الفصل الرابع	٢٩
الفصل الخامس	٣٣
الفصل السادس	٣٩
الفصل السابع	٤٥
الفصل الثامن	٥١
الفصل التاسع	٥٧
الفصل العاشر	٦٣
الفصل الحادي عشر	٦٧
الفصل الثاني عشر	٧٣
الفصل الثالث عشر	٧٧
الفصل الرابع عشر	٨١
الفصل الخامس عشر	٨٥
الفصل السادس عشر	٨٩
الفصل السابع عشر	٩٥
الفصل الثامن عشر	٩٧
الفصل التاسع عشر	١٠٥
الفصل العشرون	١١٥

إلى حاميتي الطاهرة
السيدة زينب

الفصل الأول

مطر غزير، قد ألجأ الناس إلى مظلات المشارب والحوانيت، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل المترو … ولم يبقَ في ميدان «الكوميدي فرانسيز» غير مياه تتدفق من الميازيب، وسيارات تخوض في شبه عباب … آدمي واحد ثبت لهذا المنظر، وجعل يسير الهوينى، غير حافل بشيء؛ عيناه الواسعتان تتأملان نافورة الميدان، وهي زاخرة بالماء، وفمه ذو الشفاه العريضة يلوك شيئًا كالبلح، ويلفظ شيئًا كالنواة، ويده اليمنى كالرسول الأمين — من جيبه إلى فمه — تواتيه بالمدد في غير انقطاع … هذا الآدمي فتًى نحيل الجسم، أسود الثياب، على رأسه قبعة سوداء عريضة الإطار، في قمتها فجوة غائرة؛ كطبق الحساء، قد امتلأت بماء المطر.

وفرغ الفتى من تأمل النافورة، فغادرها إلى جانب آخر من الميدان، يقوم فيه تمثال الشاعر «دي موسيه» وهو يستوحي عروس الشعر … فوقف الفتى ينظر إليه، وقد نُقش على قاعدته: «لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم!» … ثم تطلَّع إلى وجه الشاعر، فألفى قطرات المطر تتساقط من عينيه كالعبرات؛ فتحرك قلبه، وسكت فمه! … ثم همس مردِّدًا كالمخاطب لنفسه: لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم! … نعم.

ومرَّت في رأس الفتى صور من ماضٍ بعيد … ثم همس: حتى هنا أيضًا يعرفون هذا؟!

وغرق في التفكير، وغرقت قبعته في الماء، حتى فاض فسال على وجهه … وإذا بصوت خلف ظهره يصيح به: أراهن، بمائة فرنك، أن لا مخلوق يقف هكذا أمام هذا التمثال إلا أنت.

فاستدار الفتى سريعًا: «أندريه»؟!

– قبل كل كلام، انجُ بي وبنفسك من هذا المطر؛ ليس هذا وقت النظر إلى التماثيل.

– بل هذا وقته! ... تأمَّل يا «أندريه»! ... هذه الدموع في عيني الشاعر.

– لو لم يكن هذا الشاعر من رخام، لولَّى الساعة هاربًا، هو وعروسه، إلى أقرب قهوة، وتركاك وحدك، وسط هذه المياه.

ولم ينتظر الفرنسي جوابًا من صاحبه، بل جذبه إلى مظلة قهوة «الريجانس» القريبة، ثم نظر في وجهه، فوجد فمه يتحرك: عجبًا! ... ماذا في فمك؟

فلم يجب الفتى ... ولفظ من فمه نواة، وقعت في الماء الجاري إلى «البلاليع»، فصاح به «أندريه»: تأكل بلحًا؟!

– نعم ... وفي شوارع باريس.

– آه أيها العصفور القادم من الشرق.

– في مصر نسميه «عجوة» ... هذا النوع من البلح ... إني أتخيل نفسي الآن في ميدان المسجد بحي السيدة زينب! ... وأتخيَّل هذه النافورة ... ذلك «السبيل»، بنوافذه ذات القضبان النحاسية.

– كفى تخيُّلًا! ... تعالَ ... لقد سكن المطر.

– إلى أين؟

فلم يجب «أندريه» ... وأخذ ينظر إلى ملابس الفتى، ويتأمله؛ من قبعته السوداء، ومعطفه الأسود، ورباط عنقه الأسود، إلى حذائه الأسود، ثم قال: عظيم جدًّا.

– ما هو العظيم جدًّا؟!

– إنك الآن خير من يصلح للذهاب.

– إلى فاتنتي الجميلة؟

– بل إلى المدافن ... هلم معي؛ لتشييع جنازة زوج بنت مدام شارل! ... إن عليك «طقم» حداد كامل ... لكأني بك دائمًا على أتم استعداد لمثل هذه الطلبات! ... إنه ليسرني أن أصحب مثلك إلى هذه النزهة القصيرة.

– النزهة؟!

قالها الفتى وهو ينظر إلى صاحبه شزرًا؛ ولكن صاحبه تجاهل النظرة؛ وجذبه من يده؛ وقال: تعالَ نؤدي معًا هذا الواجب.

– نحو من؟

– نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل.

– ومن هي أولًا مدام شارل؟

– هي والدة أحد زملائي في المصنع.

– وما ذنبي أنا؟

– ذنبك أنك صديقي! ... فلتتحمل ما أتحمل ... لا شيء يثقل على نفسي مثل المشي صامتًا؛ خلف عربات الموتى.

سنتحدث، على الأقل سويًّا؛ في شئوننا، بل في شئونك أنت ... إني أعدك وعدًا صادقًا، بالحديث طوال الوقت، عن فاتنتك ذات الأنف؛ الذي تقول إنه — في نظرك — غير المثل الأعلى للأنف الجميل ... وقلِّب في رأسك كل الصور والأوضاع؛ التي كنت قد تخيلتها للجمال.

– نعم؛ نعم! ... لقد كنت أعتبر الجمال ...

وانطلق الفتى يتكلم متحمسًا ... ولم يفطن إلى «أندريه» وقد قاده من ذراعه؛ ونزل به إلى إحدى محطات المترو، وابتاع له تذكرة في الدرجة الثانية؛ وأركبه قطارًا مرق بهما في جوف الأرض مروق لسان «محسن» بذلك الحديث اللذيذ ... وابتسم «أندريه» آخر الأمر في خبث؛ ابتسامة من يقول في نفسه «إن معي الآن مفتاح قياده؛ فلألوِّحن له «بها» يتبعني صاغرًا؛ بغير أن يشعر؛ إلى أقاصي الأرض».

دقَّت نواقيس كنيسة «سان جرمان» احتفالًا باستقبال الجثمان؛ ولم تكن الجنازة قد وصلت بعد؛ ولم يكن بباب الكنيسة أحد غير «محسن»؛ فقد تركه «أندريه» عند الباب وذهب يشتري مظلة؛ يتقيان بها المطر في أثناء السير في الطريق من الكنيسة إلى المقبرة. وأبطأ «أندريه» على صديقه؛ وبدت طلائع الجنازة؛ واشتد دق النواقيس ... ثم فُتح باب الكنيسة على مصراعيه؛ واقتربت عربة الموتى تتهادى حاملة التابوت ثاويًا تحت باقات الزهر، وخلفها المشيعون تحت مظلاتهم. ووقفت العربة، وحُمل التابوت إلى داخل الكنيسة، ومرت أفواج المشيعين بـ «محسن»، في ملابسه السوداء الكاملة، فانحنوا له حاسبين أنه من أهل الميت الأقربين! ... هنا أدرك الفتى حرج موقفه؛ فأسرع واندس في فوج الداخلين، قبل أن تقع عليه أعين أهل الميت الحقيقيين، والناس تنحني له، فيظنوا بشأنه الظنون.

دخل «محسن» الكنيسة، ولم يكن قد دخل كنيسة قط، ولا حضر صلاة ميت من أموات النصارى، ولا رأى ما يجري فيها من المراسيم، ولا ما يُتبع من الطقوس؛ فأحس برهبة، وخيِّل إليه أنه باجتيازه العتبة قد ترك الأرض، وارتقى إلى جو آخر، له عبيره، وله نوره! ... هنا أيضًا عين الخشوع وعين الشعور، الذي كان يهز نفسه كلما دخل في القاهرة مسجد السيدة زينب! ... هنا أيضًا عين السكون، وعين الظلام في الأركان، وعين

النور الضئيل الهائم كالأرواح في جو المكان! ... إن بيت الله هو بيت الله في كل مكان وكل زمان.

وُضِع التابوت في الصدر، وأضيئت حوله الشموع، وأخذت أصوات الرهبان تعلو، مرتلة الصلاة على أنغام الأرغن، ثم تقدَّم الناس في صف طويل نحو التابوت يمرون به — الواحد تلو الآخر — ينضحونه بماء مقدس من «قمقم» فضي، ومشى «محسن» في الصف ذاهلًا خائفًا أن يحدث صوتًا على أرض الكنيسة. وانتبه قليلًا، فرأى القمقم في أيدي من أمامه في الصف، يرسم به الواحد علامة الصليب، وهو ينضح به الميت ثم يسلمه في صمت إلى من خلفه، وراقب الفتى هذا الفعل يتكرر أكثر من خمسين مرة، وهو يحسب ألف حساب لنوبته. وأذهلته الرهبة، فما راعه إلا القمقم يسلم إليه ممن أمامه فتناوله بيد ترتجف، ولوَّح به نحو التابوت، راسمًا في الهواء علامة، لا يدري من فرط اضطرابه: أدلت على صليب أم على هلال! ... ثم نضح التابوت على نحو خشي معه أن يكون قد أكثر فبلل الغطاء، ولكنه فرغ من مهمته على أي حال، فتنفس الصعداء، ومدَّ يده بالقمقم يسلمه إلى من يليه، فلم يجد خلفه أحدًا ... كان هو الأخير في الصف ... يا للكارثة! ... ما العمل؟! ... وحار وارتبك بهذا القمقم في يده لا يدري ما يصنع به، وقد اشتغل عنه القوم بتعزية أهل الميت الواقفين عند باب الخروج، وتصبَّب العرق باردًا من جبينه ... إنه يحمل في يده شيئًا مقدسًا ... كيف يتصرف إذن من تلقاء نفسه، في شيء مملوك لله داخل بيت الله؟! ... إنها لمسئولية عظمى! ... ولمحه أحد القسيسين في هذا الموقف؛ فبادر إليه وحمل عنه العبء؛ فانصرف الفتى؛ وكأنه يقول في سذاجة: «ما أقوى كواهل أولئك الرجال الذين يتحملون كل تلك التبعات، في إدارة ممتلكات السماء!» ... وأسرع «محسن» إلى اللحاق بالصف؛ كي يعزي أهل الميت؛ فما كاد يتقدم إليهم في ملابسه السوداء؛ حتى حملقوا فيه؛ كأنما هم يتذكرون أو يتساءلون عن هذا الصديق الحميم، الذي أتى يشاركهم مصابهم في ثياب حداد كاملة، لم يرتدِ مثلها بعض أقارب الميت ولا ذووه! ... وأعياهم التذكر؛ وفهم «محسن» ما يجول بخاطرهم؛ فلفظ سريعًا بضع كلمات غير مفهومة؛ وانطلق إلى الخارج ... فوجد «أندريه» واقفًا تحت مظلة جديدة؛ بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت.

ورأى الفرنسي صديقه فابتدره محملقًا في وجهه: ما لك أصفر الوجه؟!

فلم يجب «محسن» بغير قوله: اذهب وادفن زميلك؛ أما أنا فإني أنتظرك في قهوة «الدوم».

واختفى سريعًا؛ قبل أن يترك لأندريه وقتًا للكلام.

جلس «محسن» وصاحبه «أندريه» في قهوة «الدوم» بحي «مونبارناس»، وهي ملتقى أهل الفن: من مصورين ومثَّالين وشعراء، ومن أجل ذلك أصبحت ذات شهرة وصيت، وهبط في ذلك العام سعر الفرنك الفرنسي، فهبط باريس سائحون كثيرون، أغلبهم الأمريكان، انتشروا كالذباب في كل مكان.

وطلب «محسن» قدحًا من عصير البرتقال، جعل يرشف منه في بطء من خلال ذلك العود المجوَّف من القش.

كان الجو خانقًا عصر ذلك اليوم، ورطبًا ثقيلًا ... وأخذ «محسن» يتأمل لون الشراب الأحمر لحظة، ثم ما لبث أن ارتعد جسمه فجأة.

لقد تذكَّر حلمًا غامضًا رآه الليلة الماضية ... قد يكون كابوسًا ... لا ... لم يكن بالضبط كابوسًا، ذلك لأنه لم يرَ فيه شيئًا مزعجًا، أو شيئًا مبالغًا فيه ... لقد كانت أحداثه طبيعية، ومنطقية.

لقد رأى «محسن» نفسه متهمًا بجريمة قتل، ورأى ضحيته رجلًا يجهل اسمه، وشخصيته.

أي سلاح استخدمه في جريمته؟! ... ولأي سبب كان كل هذا؟ ... هو لا يعلم شيئًا ... كل ما يعلمه أنه كان متهمًا، وأن يديه كانتا ملطختين بالدماء، ومكبلتين بالأغلال ... ثم رأى نفسه يستيقظ من نومه وهو يصيح؛ أنا بريء! ... أنا بريء.

كان الوقت لا يزال ليلًا ... قام فأضاء المكان ليرى يديه ... لِمَ كان هذا الحلم؟ ... هل هو قاتل حقًّا؟ ... ثم ماذا؟! ... ألم يقم بأداء فريضة الصلاة قبل النوم؟

إن منظر الدم كان شيئًا غير محتمل بالنسبة له ... إنه لم ينسَ قط بعض أيام الثورة ... ثورة ١٩١٩.

لم يكن قد أكمل بعدُ عامه العشرين ... لقد كان أبوه المستشار يريده محاميًا ... وكان هو يرى أن رغبته كانت تتجه ناحية الفن، والأدب.

ولذلك كانت مهمته في أثناء الثورة تأليف الأغاني الوطنية التي كان يلحنها هو بنفسه، والتي كان يغنيها زملاؤه — شباب القاهرة — خلف قضبان السجن بحماسة، بينما كان هو لا يحمل سلاحًا غير سلاح الحماسة ... لم يكن يحمل — في وسط الزحام — غير قلب مشتعل، وأغانٍ وطنية حماسية.

لقد رأى يومًا منظرًا من قريب بقي أثره مدى الحياة ... رأى جنديًّا بريطانيًّا شابًّا يقف وحده، وقد لمحه الثوَّار، فأحاطوا به وضربه واحد منهم بقضيب من حديد على رأسه، فشجَّه ووقع صريعًا ... الدم كان يملأ وجهه، وقد تناثر مخه في كل مكان.

لقد غُشي الفتى «محسن» عليه واعترته دوخة، وكاد يُغمى عليه ... وبينما ظهر الجنود البريطانيون مسلحين بالمدافع الرشاشة، تفرَّق الثوار في الحواري المظلمة، وبقي «محسن» وظهره إلى الحائط يحدِّق فيما يرى.

لقد كان من الصدفة أن الجنود لم تلمحه ... ولَمَّا تنبه طار مسرعًا يخطو فوق جثث القتلى في حواري مهجورة.

إن منظر الجندي الشاب المضرج بدمائه لم يترك مخيلته، لقد نسي أنه عدوه ... عدو وطنه ... إنه لم يعد يذكر إلا ذلك المنظر المحزن ... ذلك الموت الفظيع.

وعندئذٍ تخلَّص «محسن» من أحلامه، واستيقظ على صوت «أندريه» الضاحك.

وطلب «أندريه» كأسًا من «البرنو» أخذ منه جرعة، ثم التفت إلى صديقه قائلًا: أتدري أين دفنوا زوج بنت «مدام شارل»؟

– لا أريد أن أعرف أين دفنوه.

– لماذا؟

فضاق «محسن» ذرعًا: وبعد؟ ... أخبرني بحق ربك، متى تعتقني من هذا المدعو زوج بنت مدام شارل؟! ... أما كفاك أني صليت على روحه في الكنيسة ونضحته من القمقم المقدس؟! ... آه! ... إني لن أغتفر لك هذا التهاون منك ... إنك كنت تعرف أني داخل هذا الحرم المقدَّس ولا تقول لي حتى أعدَّ نفسي!

فابتسم «أندريه» وقال: أيها العصفور الشرقي! ... تعدُّ نفسك لدخول الكنيسة؟! ما معنى هذا؟ ... إنا ندخلها كما ندخل المقهى ... أي فرق؟! ... هناك محل عام، وهنا محل عام ... هناك الأرغن، وهنا الأوركسترا.

فلم يلتفت إليه «محسن» وهمس كالمخاطب لنفسه:

– بل هناك السماء! ... وليس من السهل على النفس الصعود في كل لحظة ... إنه لمجهود.

فلم يَبْدُ على الفرنسي أنه فهم عن «محسن»، ولم يكلف نفسه عناء سؤاله. ورفع كأسه، وجرع جرعة أخرى، ثم أشار بطرفي عينيه إلى أمريكية حسناء، جالسة مع أسرتها على مقربة منهما، وهي لا تفتر عن النظر إلى من حولها من فنانين، ووقعت عيناها آخر الأمر على «محسن» في ثيابه السوداء، فغمزت من معها وهمست إليهم بكلام.

ولحظ «محسن» نظراتها، فقال لأندريه في صوت منخفض: لماذا يرمقونني هكذا؟!

– يحسبونك من أهل الفن؛ بهذه القبعة وهذه الملابس.

– إنهم ينظرون إليَّ كما ينظر الإنسان إلى طائر غريب! ... أَوَلَمْ يروا فنانًا قط؟! ... يخيل إليَّ يا «أندريه» أن هؤلاء الأمريكان قوم خلقوا من الأسمنت المسلح؛ لا روح فيهم، ولا ذوق، ولا ماضي! ... إذا فتحت صدر الواحد منهم وجدت في موضع القلب «دولارًا»! ... إنهم ليأتون إلى هذا العالم القديم، حاسبين أنهم بالذهب يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقًا، ولبلادهم ماضيًا.

ولم يظهر على «أندريه» أنه أصغى إلى كلام صديقه كله؛ فلقد كانت عيناه تتبعان الأمريكية؛ فقال: أهذه بربك من الأسمنت المسلح؟!

– لا تطل إليها النظر هكذا؛ وإلا قلت لزوجتك «جرمين».

فهز الفرنسي كتفيه ومضى في إظهار إعجابه: تأمل هاتين العينين الزرقاوين كأنهما في لون زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة.

– كلا ... بحيرات الجنة في لون الفيروز.

– أيها المفتون! ... إنك لا ترى غير عيني فاتنتك التي لا تعرف اسمها.

فنظر «محسن» إلى الفضاء، باسمًا سابحًا بخياله، ثم قال: أعرف صوتها؛ وهذا ليس بالقليل ... ليلة الأمس في «الأوبرا» ...

– كنتَ في «الأوبرا»؟

– اطمئن ... أعلى «التياترو» ... وسمعت صوتها ... أعني صوتًا كصوتها ... كل صوت جميل هو صوتها ... سمعته يغني: «قلبي يتفتح لصوتك، كما تتفتح الأزهار لقبلات الصباح».

الفصل الثاني

جلس «محسن» كعادته كل صباح إلى مائدة المطبخ، في المنزل الذي يقطنه، آمنًا شر البرد القارس في الطريق، مستعذبًا نقر المطر على زجاج النافذة؛ كأنه نقر أطفال على طبول صغيرة، وقد وضع على رأسه قلنسوة مصرية من الكستور، وفتح أمامه كتاب «الجمهورية» للفيلسوف أفلاطون، وأمسك سكينًا جعل يقشِّر بها بصلًا، وبين آن وآن يلتفت إلى طفل في الرابعة يلعب في أحد الأركان متقلدًا سيفًا زائفًا مما يلعب به الأطفال، ومصوبًا مدفعًا صغيرًا من الصفيح نحو أعداء وهميين من الألمان. وكان الطفل يثرثر ويصيح، موجهًا الكلام؛ تارة إلى أعدائه، وتارة إلى جدته العجوز الواقفة أمام النار، وتهيئ مرقًا من لحم البقر، وهي لاهية عنه وعما يقول! ... وأخيرًا التفتت إليه وسألته: ألست جوعان يا «جانو»؟

– نعم ... إني أحارب «البوش».

فقالت جدته في تحمُّس: نعم! ... قاتل «البوش» يا «جانو»! ... ولا تُبقِ منهم أحدًا على وجه الأرض.

فرفع «محسن» رأسه مستغربًا هذه الكلمة، وقال: «البوش»؟! ... من هم «البوش»؟

فابتسمت العجوز وقالت: هم الألمان ... نحن — عامة الفرنسيين — نطلق عليهم هذا الاسم.

وصاح «جانو»: نعم هم الألمان ... جدتي! ... لماذا هم يُسمَّون ب «البوش»؟

فتفكَّرت المرأة قليلًا، ولم يسعفها علمها المحدود، وقالت: لست أدري.

وأسرعت فغيَّرت مجرى الحديث ناظرة إلى «محسن» مبتسمة لانهماكه في عمله: برافو يا مسيو «محسن»! ... إنك لبارع حقًّا في تقشير البصل.

فقال محسن دون أن يبدو في نبراته تهكم أو تلميح: براعتك يا سيدتي في الغناء والعزف على «البيانو».

فابتسمت، ولم تدرك مراده وقالت: يا لك من فتًى متملق.

وأخفى «محسن» في نفسه ابتسامة لذكرى ذلك اليوم الذي هبط فيه هذا المنزل، فقد أرادت هذه المرأة أن تُدخل على نفسه السرور، وتملأ المنزل بهجة ومرحًا؛ فأرسلت في طلب «جرمين»، زوجة ابنها، وأجلستها إلى «البيانو» وأخذت هي في الغناء بصوت لم يعرف له «محسن» أصلًا من الأصول! وإذا الغناء ينتهي بصيحة، ظنها «محسن» داخلة في تركيب النغم! ... ولكنها كانت صيحة شجار، دبَّ فجأة بين الحماة وزوجة ابنها، واستفحل أمر الخلاف بينهما إلى حد أزعج الفتى، فما راعه إلا غطاء «البيانو» يُغلَق في عنف ... وزوج الابن تقوم إلى قبعتها ومعطفها، فتضعهما عليها وضعًا في غضب، وتذهب نحو الباب تريد الانصراف. وانقلب المنزل في لحظةٍ شر منقلب، وامتلأ، لا بالمرح والبهجة، ولكن بالكدر والكرب! وما من سبب ظاهر استطاع «محسن» أن يستخلصه لكل هذا ... منذ ذلك اليوم و«محسن» يحسب حسابًا لعزف العجوز وغنائها ... وإذا عزفت مرة أو غنت رفع عينيه إلى السماء وسأل المولى حسن الختام.

التفتت العجوز مرة أخرى إلى «محسن» وإلى البصل، ثم قالت باسمة: لا بأس! ... لك عندي ثمن عملك هذا يا مسيو «محسن»! ... أتدري ما هو الثمن؟ ... سأعزف لك أغنية على «البيانو».

فلم يملك «محسن» نفسه وقال: أتسمين هذا ثمنًا؟!

ثم استدرك، وقال سريعًا: أية أغنية؟ ... ينبغي أن نتفق على الأغنية أولًا.

فقالت المرأة: الأغنية التي تحبها، تلك التي قلت إنك سمعتها في دار «الأوبرا».

فاهتزَّ «محسن» في كرسيه، وأنشد على الفور مطلع أغنية «سان سانس»: «قلبي يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار لقبلات الصباح!»

فنظرت إليه المرأة في عجب: ما أشد حبك للموسيقى.

– إنها في دمي.

قالها «محسن» في بساطة تنم عن حقيقة عميقة، وفي لهجة تشير — عن غير قصد — إلى ماضيه بأكمله! ... ثم تناول السكين، واستأنف تقشير البصل، وهو يصغي في أعماق نفسه إلى أنغام تلك الأغنية ليلة أنشدتها «تينون فالان» الشهيرة، في أوبرا باريس منذ شهرين ... ليلة جميلة عجيبة لا ينساها «محسن»، فقد رأى فيها ما لم يرَ من قبل، وسمع ما لم يسمع! ولقد أراد في تلك الليلة أن يتشبَّه — لأول مرة — بالموسرين، فاستأجر مقعدًا في صفهم، وهو لا يعلم أن ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة الرسمية، ونبهته العجوز، فحار في شأنه؛ إذ ليس لديه هذا اللباس. ورأى آخر الأمر أن يلجأ إلى الحيلة؛ فاشترى صدر

قميص أبيض منشٍّي، وربطه على صدره ربطًا وثيقًا، بخيوط «الدوبارة»، ثم أتى بأكمام منشَّاة ربطها كذلك حول معصميه ... وارتدى ملابسه العادية السوداء فوق هذا كله والعجوز تنظر إليه وتقول: «لو أنه حدث الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجبًا؛ إنسانًا مربطًا بالخيوط من الداخل «كطرد» البريد!» وحان الوقت، ودخل «محسن» «الأوبرا»، فما تمالك أن وقف مشدوهًا؛ أية عظمة وأي ثراء يُشعران بالدوار؟! ... وأي أنوار؟!

عندئذٍ أدرك من فوره معنًى مجسمًا لكلمة «الحضارة الغربية الكبرى» التي بسطت جناحيها على العالم.

نعم، ما كل هذا البذخ والإغراق في الترف، إلى حد الكفر والفجور والاستهتار؟! لكأنما جاء القوم — وأغلبهم من سراة الأمريكان — إلى هذا المكان يتساجلون الغنى والسعة وكبرياء المال، أكثر مما جاءوا يلتمسون لذة التطهر والخضوع في حضرة الفن، أو لذة العودة إلى الإنسانية والروح على يد الموسيقى! ... وصعد «محسن» سُلَّم «الأوبرا» المشهور، وهو يتصبَّب خجلًا بين الصاعدين من أصحاب «الفراء» الثمين، والقبعة العالية، والقميص المنشٍّي «الحقيقي»، والسيدات الأنيقات في أثواب الليل البراقة، والحلي المتألقة؛ كأنهن الشموس في عالم الماس ... وخيِّل إلى «محسن» أنه قد دخل بين هؤلاء القوم بالغش والتدليس، وأن هذا السلم الشهير يأنف من حمله وقد مرَّت عليه السنون، وهو يحمل الجاه والمال في العالم قاطبة. ولعله المكان الوحيد الذي لا شك قد وطئَتْه أقدام جميع الملوك، فليس ببعيد أن يغضب السلم في هذه اللحظة ويزلزل بـ «محسن» صائحًا: «لم يبقَ على آخر الزمان إلا أن يطأني، بنعله القديم، مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق!» وتصوَّر «محسن» أن خيوطه قد تُحل لسبب من الأسباب، فيسقط الصدر المنشٍّي على الرخام، وسط أولئك القوم المترفين فتكون الفضيحة.

كانت ليلة أحس فيها الحرج والمذلة، وعلم أن ثمرات الفن إنما هي أيضًا حق ووقف على طبقة الأغنياء، وأن الطريق إلى الاستمتاع الروحي ينبغي أيضًا أن يُفرَش بالذهب. وتمثَّلت له تلك الجمهورية الجميلة التي تخيَّلها الشعراء والفلاسفة في كل زمان؛ جمهورية لا تعرف الفقر ولا تعرف الغنى لأنها لا تعرف الذهب، وتعرف السلام لأنها لا تعرف الجشع ... الكل فيها مثل فرد واحد ... الكل فيها يعمل، والكل يأكل، والكل يقرأ وينعم، والكل يلعب ويمرح ... أما الذهب، فإنما يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد ... يا للسماء! ... أوَمُستطاع لمثل هذ الحلم الجميل أن يتحقق يومًا، على هذه الأرض؟!

وتنبه «محسن» قليلًا، وترك تأملاته، ورفع رأسه؛ فألفى السكون قد هبط على هذا المنزل الريفي الصغير، ولم يسمع إلا صوت لغط الدجاج في الحديقة، وصياح الديكة وهرج الإوز، ثم ثرثرة «جانو» مخاطبًا لعبه بين آن وآن … وكأنما سئم «جانو» اللعب آخر الأمر، فنهض ودنا من المرأة صائحًا في لهجته الصبيانية: جدتي! … الدجاجة الحمراء تبيض اليوم.

فأجابت جدته في تقطيب: «جانو»! … إني لا آذن لك في الذهاب إلى الدجاج بمفردك.

– سأذهب مع مسيو «محسن».

– لن تذهب اليوم! … إن المطر ينهمر في الخارج والبرد شديد.

– وماذا أصنع الآن؟

– حارب «البوش».

– حاربتهم.

– قص على مسيو «محسن» كيف أراد الألمان أن يدمروا باريس! … ألا تذكر ما قلته لك عن هذا؟

– نعم … إني أريد أن أعود إلى منزلنا.

– منزلكم خاوٍ الآن، وليس به أحد … أنت تعلم أن أباك وأمك لا يرجعان من المصنع قبل الغروب.

ودمدم الطفل وتبرَّم في صوت كالبكاء، ثم مشى في بطء إلى حيث يجلس «محسن»، وجعل ينظر إليه ثم مد يده الصغيرة إلى الكتاب المفتوح فوق المائدة، وطفق يقلب صفحاته باحثًا عن صورة فيه. ولم يتحرك «محسن»، فقد كان عقله مشغولًا، ونظراته جامدة، لا تتَّجه إلى شيء بعينه؛ إنما كان يتساءل في أعماق نفسه: أليس في كل فرنسا أمهات يلقِّن أطفالهن كراهية الألمان؟ … ومن يدري؟ … لعل كل نساء الألمان يعلمن أطفالهن كذلك بغض الفرنسيين! … ولتكن الأسباب ما تكون … بأي حق تستطيع أم أن تنشئ ولدها على العداوة والبغضاء؟

ولكنه هو أيضًا نُشِّئَ على الكراهية … كراهية الإنجليز … إنه لن ينسى قط صورة أبيه الشاحبة حين دخل البيت — ذات مساء — مضطربًا، متأثرًا.

كان «محسن» يسمع المستشار من فتحة الباب يخاطب زوجه، ويقول: إما التخلِّي عن الوظيفة … وإما التخلِّي عن ضميري كقاضٍ … إن أكل العيش أصبح مهددًا.

كانت أم «محسن» عملية، متيقظة، فأحسَّت بانتفاضة … كانت طبيعتها متغيِّرة، متناقضة … فهي شجاعة، ومع ذلك تراها خائفة … وهي رحيمة وقاسية … قوية وضعيفة

... وهي تحب العظمة إلى أبعد الحدود، ولكن العظمة التي لا تكلف صاحبها شيئًا كبيرًا، والتي لا تتطلب التضحية، والتي لا تهدد الحياة، ولا حتى الأرزاق.

كانت تفهم معنى الكلمات الرنانة مثل: الضمير، الحكمة، الشجاعة ...

وحالما علمت أن ضمير زوجها القاضي، كان ألعوبة، لم تتردد أن ترتفع بأفكارها ... ناسية في هذه اللحظة ما يترتب على فقدان المركز، فأعلنت رأيها لزوجها قائلة: إن ضمير القاضي وشرفه قبل كل شيء.

لقد كانت تعلم كل ما يدور حول هذا الموضوع ... والناس يتكلمون عن قضية في الاستئناف ... والهمس يدور في كل مكان ... «إن القضية مؤامرة من مؤامرات الإنجليز ضد مدير أحد أقاليم الدلتا الذي اتهموه بالكبرياء.

وكان المدير ابنًا لإحدى الأُسَر الغنية في الوجه القبلي، تلقَّى علومه في «أكسفورد»، وعاش مدة كبيرة في إنجلترا، وكان يحبها مثل ما يحب بلاده، بل كان يحب كل ما هو إنجليزي.

وجاء إلى بلده، فكان يرسل ملابسه مرتين في الشهر إلى إنجلترا لغسلها وكيِّها ... ثم عُيِّن يومًا مديرًا لإحدى محافظات الوجه البحري، وهناك اكتشف لأول مرة وجه الإنجليز الحقيقي.

لم يكن ذلك «الجنتلمان» الذي عرفه في إنجلترا «رجلًا محبوبًا وشريفًا». لقد أصبح كائنًا آخر، ذا خُلق يتعارض مع مثيله الإنجليزي في بلاده ... إنه الحاكم الذي يفرض سلطانه، ويصدر أوامره على أكبر الشخصيات المصرية ... إنه لأمر عادي أن يستقبل المدير — وهو موظف كبير — أي موظف إنجليزي يمر بالمحافظة.

وكان هذا المدير — صديق الإنجليز — غير جاهل هذا التقليد المهين، ولكن الشيء الذي كان يجهله أن ذاك الإنجليزي المحتل لا يقرُّ صداقته للمصري ... إن قاموسه لا يحوي غير كلمتي «سيد وعبد».

إن المدير، كان قد قرر الاستقالة، ولمَّا علم الإنجليزي بذلك لفَّقوا له تهمة ... فاتهموه ظلمًا بأنه عذَّب بعض المتهمين في قضية للحصول على اعترافات منهم، وهذا عمل غير مشروع في قوانين الإنسانية، والقوانين المدنية.

لقد كانت عملية ظاهرها الرحمة، وباطنها الانتقام من شخص أرادوا إذلاله ... فباسم الإنسانية يهاجمون أعداءهم ويحاكمونهم ... هذه كانت طريقة الإنجليز التي يتقنونها.

وكان — في الحقيقة — مديرنا يجهل كل هذا التدبير ... إن الجناة يبرَّءون، والأبرياء يصبحون جناة، وهم في كل ذلك لا يعدمون الوسائل.

وكان أبو «محسن» مكلفًا بالنطق بالحكم في هذه القضية. وبعد أن حقَّق القضية جيدًا، ورأى الجروح المفتعلة في أجسام المصابين، وعلم حقيقتها ... خافوا ألَّا تكون هذه أدلة قاطعة، فجاءوا إليه بمن يُسِرُّ في أذنه ويقول له: «يجب أن يكون حكمك مدينًا للمدير، وإلا ...»

وكان القاضي يعلم يقينًا ببراءة المدير، كما كان الرأي العام يعرف ذلك.

وجاءت الوعود بعد التهديد لعلها تفيد ... فقد لَّمحوا له بالإنعام عليه بالرتب والنياشين في غداة الحكم.

فماذا عساه يفعل؟

لذلك، كانت أم «محسن» تتغلب على نزعتها، وطبيعتها وتقول لزوجها: احكم بحسب ضميرك يا عزيزي، وليكن ما يكون.

وحكم القاضي بالبراءة ... ولكن هذا لم يمنع المعتدين أن يجدوا نصًّا قانونيًّا عاونهم على تحويل القضية إلى قاضٍ آخر يتعاون معهم على إدانة المدير، والذي أصبح بعد تلك القضية زعيمًا من زعماء الثورة المصرية.

وتنبه «محسن» من تأملاته وذكرياته ... فقد انتشرت في المكان رائحة شواء شهي، فرفع بصره، فألفى المرأة تخرج من الفرن فخذًا من لحم البقر، أخذت تدهنه بالزبد وهي تقول: سيحضرون هذا المساء في الساعة السابعة للعشاء ...

فقاطعها «جانو» صائحًا في فرح: وهل «جيزيل» ستحضر أيضًا يا جدتي؟

فابتسمت المرأة والتفتت إلى «محسن» غامزة بعينها: بالطبع، ستحضر «جيزيل» مع والديها.

فتهلَّل وجه الطفل، وطفق يثرثر كالببغاء، وابتسم «محسن» متذكِّرًا أيام الطفولة الأولى.

دقت الساعة الواحدة في مصانع «كوربفوا» القريبة، فأسرعت المرأة إلى قاعة الأكل وجعلت تهيئ مائدة الغداء، وسُمع صرير مفتاح في الباب الخارجي، ثم بدا في الدار شيخ، ما كاد «جانو» يسمع صوت نعله وسعاله حتى انطلق نحوه يجري ويصيح: «جدي حضر! ... جدي حضر!»

ودخل الرجل المطبخ، ونشر مظلَّة في يده بللها ماء المطر، ومد يديه إلى النار، وهو يحادث زوجه في شئون المعاش بعبارات يقطعها سعال عنيف ... وأصغت إليه المرأة حتى

فرغ من حديثه، فقالت له في صوت اليائس: صفوة القول، ليس لنا أن نأمل في عمل بأحد المصانع؛ أليس الأمر كذلك؟

– الوقت عسير يا عزيزتي، والمصانع لا تريد أن تمنح أمثالنا القوت؛ لأن لديها حاجتها من العمال … من أولئك العمال المساكين، الذين تسخرهم طول اليوم من أجل لقمة كالعبيد.

– وماذا نصنع نحن إذن؟ … ينبغي أن تذكر أن ولديك «أندريه» و«مارسيل» لن يستطيعا بعد اليوم إمدادنا بالمال؛ فلقد عزم «أندريه» إلحاق «جانو» بمدرسة داخلية، وفي هذا باب جديد للنفقات سيتكلفه المسكين، كذلك «مارسيل» يتكلف الباهظ من المال منذ عام في الإنفاق على تعليم «جيزيل».

فأطرق الرجل مليًّا … ثم قال: صدقت! … ليس لنا إذن من مورد إلا …

والتفت يمنة ويسرة باحثًا عن «محسن» بعينين خابيتين تحت المنظار … وأدركت المرأة مراده، والتفتت إلى مكان «محسن» من مائدة المطبخ فوجدته خاليًا فقالت: «عصفور الشرق» صعد إلى حجرته من غير شك؛ كي يضع كتابه ويتهيأ للغداء … نعم ليس لنا من مورد إلا ما يدفعه هذا الشاب.

صمت الرجل لحظة متفكِّرًا، ثم قال: أترى تطول إقامته بيننا؟

– من يدري؟ … لقد قال لي ذات يوم إنه سيمكث عامين أو ثلاثة … آمل ألا يسأم حياة الريف، ويفر إلى باريس.

فظهر القلق على وجه الشيخ، ثم نظر مفكِّرًا إلى النار المتأججة في الوجاق، وقال كمن يُدخل على نفسه الاطمئنان: كلا؛ إنه، فيما يبدو لي، شاب لا يميل إلى اللهو كسائر الشبان.

– حقيقة، إنه لا يحب سوى المطالعة والتأمُّل والموسيقى، لكن من يدري إن كان يلبث فينا كل مدته؟ … ليس لنا إلا أن نأمل.

هز الرجل رأسه وأطرق صامتًا، ثم دسَّ يده في جيبه، وأخرج لفافة تبغ، وجاء «جانو» يجري وقفز إلى ساق جده فامتطاها، كما يمتطي الحصان، وطفق يحدثه بمجيء «جيزيل» المنتظر.

الفصل الثالث

فرغوا من الغداء، وانصرفت المرأة إلى الأواني والأطباق تغسلها في المطبخ وتتأهب للعشاء، وجلس زوجها على مقربة منها يدخن ويطالع جريدة «الأومانيتيه» — الإنسانية — المنتشرة في طبقة العمال وأهل الفاقة … وخلا «جانو» إلى لعبه ومدافعه وحربه الضروس، وأغلق «محسن» حجرته عليه، ووضع كتابه أمامه وقرأ صفحتين، ثم جمدت عيناه على الكتاب، ولم يعد يقرأ أو يبصر شيئًا؛ فقد ترك الحجرة، وغادر الأرض وضل في بحار التأملات.

وأقبل المساء أخيرًا، ورن جرس باب الحديقة، فترك «جانو» لعبه وأسرع نحوه، ثم لم يلبث أن صاح في فرح: «ماما حضرت! … بابا حضر!»

وظهرت امرأة في مقتبل العمل، جذابة الوجه، تعلق بها «جانو»، وهي تدفعه عنها في رفق، وخلفها زوجها «أندريه»، وعليهما — هما الاثنان — مظاهر التعب والقوى المنهكة. ومسحت العجوز يديها في «فوطة» المطبخ التي ترتديها، وأقبلت على زوج ابنها تعانقها، وتتأمل وجهها وتقول في حسرة متصنعة إنك متعبة منهوكة القوى يا «جرمين».

فأجابت الزوجة، وهي تنظر إلى زوجها الشاب: إننا لم نخرج من المصنع إلا الساعة.

واتجهت العجوز إلى ابنها تعانقه، وتصيح في حرارة حقيقية: وأنت أيضًا يا «أندريه»! … ما كل هذا الشحوب؟!

– إننا يا أماه نعمل ثماني ساعات في النهار.

قالها «أندريه» وهو ينظر إلى أبيه، وكان أبوه قد طرح الصحيفة من يده، واتجه إلى «جرمين» و«جانو» يباسطهما. فلما سمع قول «أندريه» صاح في حدة: يا لها من وحشية! … إن هذا لم يعد يسمى عملًا، إنما هو الاسترقاق … الرق لم يذهب من الوجود … لقد اتخذ شكلًا آخر يناسب القرن العشرين … ها هي ذي جيوش من العبيد يسخِّرها أفراد معدودون من السادة الرأسماليين.

ورفع «جانو» بصره إلى جده، ولم يدرك سببًا لحدته.

وحانت من «أندريه» التفاتة إلى الصحيفة الملقاة على الأرض، فابتسم وقال: أهذا ما قرأته اليوم في «الأومانيتيه» يا أبتاه؟

فأجاب الرجل في جِد وحدة: نعم، أوَليس هذا هو الحق؟!

– من غير شك هذا هو الحق، ولكن ماذا نصنع نحن الفقراء؟

– ينبغي أن تنقص ساعات العمل على الأقل، حتى تستردوا بعض حريتكم، وبعض وقتكم، وحتى تنقذوا ما بقي لكم من صحتكم، وحتى نجد لنا — نحن العاطلين — عملًا وكسبًا نسد به الرمق.

– إنك تجهد نفسك في الكلام يا أبتاه! ... لقد قلت الحقيقة؛ نحن عبيد القرن العشرين، ومتى كان للعبيد حق الاعتراض أو حق الاقتراح؟!

وأراد الشيخ أن يجيب، ولكن «جانو» تململ ونظر إلى والديه، وإلى جدته وصاح: لماذا أبطأت «جيزيل»؟

وجعل الطفل يجذب ثياب أمه ملحًّا في السؤال، فضربت الأم على يده الصغيرة في لطف، وخلَّصت ثيابها منه. وأرادت جدته أن تقصيه، فقالت له: اذهب وجئ بمسيو «محسن»؛ فقد أزف ميعاد العشاء.

وتنبه «أندريه»، فسأل على الفور: أين عصفور الشرق؟ ... لقد فاتني أن أسأل عنه ساعة دخولي؟!

– في حجرته.

فاتجه «أندريه» نحو سلم الدار، ثم عاد يقول: لستُ أرى نورًا في حجرته.

فأجابت الأم العجوز، وهي تقطع رغيفًا طويلًا من الخبز: إنه في حجرته ... جالس إلى مكتبه. وطالما يفاجئه المساء، وهو أمام كتابه بلا حراك، وكثيرًا ما أدخل حجرته فأجد الظلام مخيَّمًا عليه، وهو جالس جامد كالتمثال؛ فأدير له مفتاح الكهرباء.

– إنه غريب الأطوار! ... إني أعرفه حق المعرفة.

وعندئذٍ دق جرس الباب الحديدي، فمرق «جانو» من بين الجميع إلى الباب، وهو يصيح كالعصفور «جيزيل».

اجتمع الكل حول المائدة، وكانوا قد انتهوا من العشاء منذ قليل، ولبثوا في مقاعدهم يتحدثون عن الاشتراكية، وقد فشا أمرها في باريس، وأمست بدعة من البدع يتبعها الناس مقلدين ... إن الحياة أمست عسيرة، وإن سعر الفرنك هوى إلى الحضيض؛ وإن فرنسا

الآن فريسة أصحاب المال الأمريكيين، وإن هؤلاء الأمريكان قد بلغ من عتوهم واعتدادهم بثرائهم أن الواحد منهم لا يوقد «سيكارة» إلا بورقة مالية مشتعلة، تحت أنظار الشعب الفرنسي الفقير! … هنالك صاح زوجها الشيخ في غيظ: يا لهم من أنذال!

ثم استطردت العجوز فجأة؛ وكأنها استكشفت شيئًا: لا ريب في أنهم السبب في غلاء أسعار الخضر واللحم والفاكهة.

وألقت نظرة استفهام على الحاضرين، فإذا هي ترى «جانو» وابنة عمه «جيزيل» قد جلسا متلاصقين يأكلان «الجاتوه» ولا يكفَّان عن الكلام.

ونفد نصيب «جانو»، فجعل ينظر إلى «جيزيل» التي تكبره بعامين، وهي تأكل في تؤدة وكياسة. وفطنت الطفلة إلى فمه العاطل، وإلى نظراته الطامعة، فما ترددت وقدمت إلى صديقها بكل ما بقي لها … ولم يأبَ عليها «جانو»، وقَبِل منها هديتها، وطفق يلتهم ما أعطته إياه، وهو ينظر إليها بعينين باسمتين، كلها اعتراف بالجميل، لكنه لم يقل شيئًا … هنالك تجهَّمت له جدته وصاحت به: «جانو»! … ألا تقول لها شيئًا؟!

فالتفت الطفل إلى جدته في سذاجة: أقول ماذا؟

– تقول ماذا؟ … تقول ما يقوله الناس، عندما يتقبلون شيئًا من الغير.

– ماذا يقول الناس؟

– يقولون: «شكرًا»، ولقد علمتك ذلك ألف مرة.

ثم التفت إلى والدي الطفل في قنوط: لم يبقَ لي جلد على تهذيب هذا الغلام، وإني أصارحكما القول: هذا ليس من عملي، إنما هو من عمل الأبوين، وما دمتما تتركان لي ابنكما طول النهار، وتنصرفان إلى المصنع، فلا أمل أن ينشأ ولدكما على الخلق القويم.

فأجاب «أندريه» من غير اكتراث: وهل تظنين يا أماه أن هذا من عملنا نحن؟ … هذا من عمل المدرسة، وسندخله المدرسة؛ أما نحن فلدينا عمل كما تعلمين.

– نعم … المصنع.

فقال الشيخ في تهكم: بالطبع … المصنع!

فهزت «جرمين» كتفَيها، فقالت العجوز في حدة: لا تهزي كتفَيك يا «جرمين»! … إياك أن تنسي لحظةً أهمية تأثير البيت … في زمننا كان البيت هو كل شيء! … آه، لقد ذهب كل شيء طيب بذهاب زمننا.

فقال «أندريه» وأخوه مارسيل في وقت واحد: أين هو البيت اليوم يا أماه؟

فتأملت العجوز قليلًا هذا القول منهما ثم أجابت: صدقتما، لم يعد هنالك بيت وا أسفاه! ولم تعد هنالك أسرة ... الرجل والمرأة في المصنع طوال النهار! ... يا له من زمن عجيب.

فقال الشيخ في قوة واقتناع: قلت لكم هذا عصر العبيد قد عاد من جديد.

وانتبه «محسن» لهذه العبارة، فلمعت عيناه ببريق غريب، ثم لم يلبث أن استأذن من الحاضرين في الصعود إلى حجرته، فأذنوا له باسمين، فصعد وجلس إلى مكتبه في الظلام، وهو يهمس: «نعم، لن يذهب الرق من الوجود ... لكل عصر رقه وعبيده!»

الفصل الرابع

لم يمكث «محسن» طويلًا غارقًا في تأملاته؛ فقد ضُرب عليه الباب، فانتبه، وإذا صديقه «أندريه» وزوجته «جرمين» يصيحان به: عصفور الشرق وحيد في القفص.

فقال «محسن» كالمخاطب نفسه: إني دائمًا في قفص.

فقال «أندريه» في ابتسامة خبث: في قفص الحب سجين أيها المسكين.

– نعم سجين.

– أتعترف بهذه السهولة؟

– وما فائدة الإنكار؟

– ولماذا لا تنطلق حرًّا مغردًا في فضاء الحب؟

فأسرع «أندريه» قائلًا: إنك تطلبين المستحيل ... إنه سيظل دائمًا هكذا ... إنه حتى الآن لم ينجح حتى في الوصول إلى معرفة اسمها.

فقالت «جرمين» في ضحكة خفيفة: لم يعرف بعد اسمها؟! حقًّا إنه لمحب خائب.

فاتخذ وجه «محسن» لون الجد الصارم، وقال في هدوء وموافقة واقتناع: أما إني محب خائب؛ فهذا صحيح، ولا محل للجدل فيه، وقد أعيتني هذه الخيبة في كل زمان ومكان.

فقال «أندريه» سائلًا: ألم ترَها اليوم؟

– لم أرَها منذ أسبوع، ولم أنصرف إلى غير مطالعتي ... إن الكتب تستطيع أن تشغل رأسي حقيقة، لكن هل الرأس هو كل شيء في حياة الإنسان؟ ... آه! ... إن أجمل لحظاتي ساعة أقف أمامها أنتظر، وأنا أعلم أنها لن تلقي إليَّ بكلمة تسر خاطري ... مرة واحدة نبذت إليَّ عفوًا بنظرة، وقالت لي: «أما تزال واقفًا ها هنا؟! ... أي مخلوق أنت؟!»

– وما قصدها من هذا؟

– لست أدري! ... فسِّر هذه الجملة كما تشاء ... أما أنا فقد فسرتها طبعًا لمصلحتي ... إني أحب هذه العبارات المبهمة التي أتخيل معناها كما أشاء.

– إنك رجل خيالي، وهذه مصيبتك.

قالها «أندريه» وهو ينظر إلى «جرمين»، فأمَّنت على قوله برأسها وأضافت: من غير شك، لا سبب عندي لفشل «محسن» غير أنه خيالي أكثر مما ينبغي؛ والمرأة لا تقنع بالخيال، بل بالحقيقة.

فلم يعترض محسن وقال في إذعان: وأين هذه الحقيقة؟ ... دلاني على هذه الحقيقة التي أكسب بها عطف المرأة.

فقالت «جرمين»: أتريد أن تعلم أين تجد هذه الحقيقة؟

– نعم أخبريني أين هي، وأنا لا أنسى لك أبدًا هذا الجميل.

– إنها تشترى بالثمن!

– كم الثمن؟ ... كل حياتي فيما أعتقد.

– بل عشرون فرنكًا فقط.

– أتمزحين؟!

– بل أقول جدًّا ... عشرون فرنكًا فقط، تشتري بها من حانوت شارع «هوسمان» زجاجة عطر «هوبيجان» صغيرة، وتقدمها إلى صاحبتك في الصباح ... هذه هي كل الحقيقة ... فهمت؟

فحلَّق «محسن» في الفضاء؛ كأنما قد كُشف عنه حجاب، ثم التفت إلى «جرمين» وقال: أحقًّا ما تقولين؟

فابتسمت «جرمين»، وقالت في صوت المتعجب: يدهشني أن فتًى ذكيًّا مثلك يجهل هذا.

– قارورة «هوبيجان» فقط! ... ثمنها عشرون فرنكًا! ... إنك تبالغين يا سيدتي! ... إنها لجديرة بأن أضع تحت شباكها قلبي كله.

– شباكها؟!

– لن أقدم إليها شيئًا زهيدًا من هذه الأشياء.

– أين صاحبتك يا «محسن»؟

فأجاب «أندريه» في الحال عن صديقه باسمًا: قلت لك يا «جرمين» إنه لا يعرف من هي، ولا يدري عنها شيئًا.

فقال «محسن»، دون أن يخرج عن هدوئه: هذا صحيح.

وازداد عجب «جرمين» فقالت تسأل الفتى: ياللغرابة! ... وأين تراها إذن؟!

فأجاب «محسن»: أراها في شباكها، تشرف على الناس بعينين من فيروز، وهم يمرون أمامها الواحد تلو الآخر، من كل جنس ومن كل طبقة، فيهم الفقير مثلي، وفيهم الموسر مثل ملك من الملوك ... فيهم الجميل والقبيح، وفيهم العجوز والشاب، وفيهم السعداء والتعساء، وفيهم الأخيار والأشرار، وفيهم الشجعان والجبناء، وفيهم الجريء والخجول ... نعم! ... يمر بين يديها كل يوم هذا الموكب، وهي تبسم من شباكها بين آن وآن دون أن يعرف أحد سر قلبها.

فنظرت «جرمين» إلى «محسن» مليًّا، ثم قالت: أهذه المرأة في باريس؟ ... أم في كتاب ألف ليلة وليلة؟!

وقال «أندريه» ضاحكًا: وهذا الشباك أين هو؟ ... في أي قصر سحري؟!

وأردفت «جرمين» ضاحكة: وهل توجد حقًّا في باريس تلك المرأة التي يمر بين يديها الناس وهي في الشباك؟!

فأجاب «محسن» في هدوء: في شباك التذاكر.

فصاحت «جرمين» وقد فهمت مراده: آه! ... هي عاملة في شباك تذاكر.

– «تياترو» الأوديون.

قالها «محسن» كالحالم، وضحكت «جرمين»، وضحك «أندريه» ثم قال: أتسمع نصيحتي يا «محسن»؟ ... اذهب غدًا وقدِّم إليها طاقة من الزهر، ثم ادعُها إلى العشاء في مطعم من المطاعم.

فتفكر «محسن» قليلًا، ثم قال: وإذا لم تقبل مني طاقة الزهر؟!

فقالت «جرمين» من فورها: لا يوجد امرأة في باريس ترفض طاقة من الزهر.

الفصل الخامس

– «مدموازيل»! ... ألم يأتِ بعد؟

– من؟

– ذلك الفتى الذي يضع المعطف الأسود فوق منكبَيه.

– لست أدري يا «كلوتيلد» ... لا أظن أني رأيته اليوم.

– إني أراه دائمًا جالسًا في القهوة التي أمامنا يطيل النظر إلى هذا الباب.

– لعله مجنون.

وعندئذٍ أقبل رجل في سن الشباب جميل الهيئة، دخل توًّا على عاملة شباك التذاكر، من ذلك الباب الذي كُتب عليه بخط كبير: «الدخول ممنوع». فما إن رأته «كلوتيلد» العجوز حتى تناولت مكنستها، وهرولت إلى عملها، وهي تهمس: «الرئيس».

– من هو المجنون يا «سوزي»؟

قالها ذلك الرجل، بعد أن ألقى على الفتاة الجميلة نظرة لا يدرك معناها غيرها! ... فهزت كتفَيها ولم تجب، فألح الرجل في شدة وغضب: قلت لك أريد أن أعرف من المجنون؟

فرفعت رأسها، ونظرت إليه بعينين متسعتين في لون الفيروز، تزينهما أهداب طويلة شقراء، ثم قالت في صوت لا يدرك معناه إلا هو: لست أنت المقصود على أي حال.

– من إذن؟

– فتًى آخر كنا نتحدث عنه.

– فتًى؟!

– لست أعرف بعد من يكون، اعتاد أن يأتي كل يوم إلى هذا الشباك، فينتظر حتى ينفضَّ الناس ويخلو المكان، فيتقدم إليَّ قائلًا: «بونجور مدموازيل!» فأرد عليه التحية، فيقف يطيل إليَّ النظر صامتًا، ثم يتحرك قائلًا: «أورفوار مدموازيل»، ويمضي لشأنه.

– أحد المعجبين من غير شك.

قالها الرئيس الشاب في نبرة غريبة ... فأجابته «سوزي» على الفور: بل مجنون ... هذا كل اعتقادي.

– حسبتك تعنيني أنا.

– أنت؟! ... لا يا عزيزي «هنري» ... أنت العقل بعينه ... أنت أعقل مما ينبغي! ... آه يا سيدي ... لقد تبيَّن لي أنك أعقل مما كنت أتصور ... هنيئًا لك.

قالتها «سوزي» في إطراق، وفي شيء من الغضب المكتوم. وأطرق «هنري» أيضًا، وجعلت يده تعبث، بدفتر التذاكر على حافة الشباك، وطال بينهما صمت قطعته «كلوتيلد» حارسة المقاصير، صائحة من جوف مقصورة: مسيو «هنري»! ... أنعد مكان الأوركسترا؟

فانتهز «هنري» الفرصة ليخرج من موقفه، وأسرع إلى قاعة المسرح، وتوسَّط صفوف المقاعد وصاح: أيتها الحمقاء «كلوتيلد»! ... الليلة رواية «الأرليزيه»! ... أتريدين «الأرليزيه» بغير موسيقى؟! ... أعدي محل الأوركسترا حالًا أيتها الشمطاء.

وعاد السكون إلى المكان، وأرادت «سوزي» أن تعود إلى تلاوة قصة «لاجارسون» التي كانت تشغل وقتها الخالي بقراءتها كلما خفت وطأة العمل؛ لكن شيئًا في رأسها حال بينها وبين الكتاب، فجعلت تنظر في فضاء المكان دون أن تثبت بصرها في شيء بعينه، وحانت منها نظرة عارضة إلى تمثال «فولتير» الرخامي أمامها في الردهة، وعلى شفتَيه تلك الابتسامة الساخرة المشهورة، فحركت أهدابها قليلًا وكأنما راعها شيء منه، لكنها تمالكت، وهزت كتفَيها، وأخرجت من حقيبة اليد بجانبها علبة أنيقة الشكل ومرآة صغيرة، وجعلت تطلي وجهها الجميل؛ حتى ظهرت «كلوتيلد» تقول في غضب: أسمعت شتائمه؟

فقالت «سوزي» من غير اكتراث: من؟

فأجابت العجوز وقد استندت إلى مكنستها: «الرئيس»! ... أما رأيت سوء خلقه اليوم؟! ... إنه لا ريب قد حدث بينكما شيء يا مدموازيل «سوزي»؛ إن خلقه لا يسوء إلا يوم يكون الأمر بينكما ...

فتنهَّدت «سوزي» تنهدًا خفيفًا، وابتسمت ابتسامة فاترة، ولم تجب.

لبث «محسن» في مجلسه من المقهى الذي أمام «الأوديون»، يحتسي قدحًا من القهوة ممزوجة باللبن، ويتأمل تلك الأعمدة العظيمة التي يقوم عليها بناء المسرح الفخم ... ولا تبرح عيناه الباب؛ كأنما هو باب فردوس، لا يدري أهو من داخليه ... أم كتب عليه أن يظل دونه من الضالين! ... ولم يقطع عليه تأملاته غير حركة فتًى وفتاة من أهل باريس،

يتعانقان خلفه، ويقبل أحدهما الآخر علانية؛ كما اعتاد الباريسيون أن يفعلوا غير حافلين بعاذل أو رقيب! ... فازورَّ «محسن» عنهما برأسه؛ غير راضٍ أن تُعرض العواطف هذا العرض، في الشوارع والطرقات؛ فتبتذل وهي التي ينبغي لها أن تحفظ في الصدور كما تحفظ اللآلئ في الأصداف ... وبينما «محسن» في تأمله إذا كف قد وضعت على كاهله، فالتفت فرأى «أندريه» يبتسم له ويقول: ماذا تصنع هنا أمام «الأوديون» أيها الفتى الشارد؟!

– أنت؟ ... دائمًا أنت ورائي هكذا.

– ماذا تفعل هنا؟ ... أجب وأسرع.

فتردد «محسن» قليلًا، ثم أشار إلى المسرح قائلًا: إني أتأمل هيكل الفن.

فغمز «أندريه» بإحدى عينيه وقال: بل قل هيكل الحب.

– كلاهما واحد ... أحدهما حالٌّ في الآخر؛ كالنور في المصباح.

– أهي هنا؟

– هي هنا، ورواية «الأرليزيه» هنا ... آه! ... ما أجملها وما أجمل الرواية، نثرًا وموسيقى! ... هنا في هذا الهيكل قد امتزجت صورتها في نفسي بصدى أنغام «الأنتر متزو»، ورقصة «الفراندول».

– ألم تقدم إليها بعد باقة الزهر أو عطر «الهوبيجان»؟

– لا زهر ولا عطر ... إنها أعظم قدرًا عندي، وأجل خطرًا من أن أقدم لها شيئًا، أو أن أوجه إليها كلامًا.

فبدا العجب في وجه الفرنسي الشاب، وخيِّل إليه أنه يسمع ألغازًا وطلاسم لا قِبل له بفهمها، فهز كتفَيه مريحًا نفسه: تلك ولا شك فلسفة شرقية.

– وأنت كيف عثرت عليَّ؟ ... وما حضورك هنا الساعة، والعمل في المصنع قائم على قدم وساق؟!

– لا مصنع اليوم ولا قدم ولا ساق ... ألم تقرأ صحف الظهر؟ ... قد أضرب العمال في مصانع «كوربفوا»، أضربنا جميعًا إلى أن يعدوا بالنظر في مطالبنا ... وأما العثور عليك، ومعرفة مقرك الآن فليس من المعضلات.

وابتسم «أندريه» في خبث، ثم مد يده إلى صديقه قائلًا: والآن، هلم بنا.

– إلى أين؟

– نحضر اجتماع العمال.

– وما شأني أنا والعمال؟

– نزهة قصيرة.

– نزهة؟ آه يا سيدي! ... بعض عطفك وكرمك! ... أخبرني بحقك؛ متى ترحمني من هذا الذي تسميه «نزهة قصيرة»؟!

– يسرني دائمًا أن تذهب معي.

– وأنا يسرني دائمًا أن تذهب أنت وحدك ... دعني الآن فيما أنا فيه ... إني كما تعلم لست من العمال المتعطلين ... إنك ترى أن لديَّ عملًا.

– في أي مصنع؟

– هنا.

وأشار الفتى بيده إلى المسرح، فضحك «أندريه» وقال:

– أتسمي هذا عملًا؟! ... آه ... أيها العاشق الشرقي الذي ينفق أيامه في قهوة يحلم، وحبيبته على بُعد خطوتين!

سمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسي، فانتفض قائمًا، وقد لمعت في رأسه كالبرق صورة من الماضي؛ فرأى قهوة «الحاج شحاتة» في حي السيدة زينب بالقاهرة. وذكر جلوس عمه اليوزباشي «سليم» الساعات الطويلة ببابها، شاخصًا إلى دار محبوبته «سنية»، آملًا أن يلمح لون ثوبها الحريري الأخضر خلف «المشربية». وأدرك «محسن» لفوره أنه يصنع الآن في شارع «الأوديون» عين الذي كان سليم يصنع في شارع سلامة منذ سنوات ... أهي المصادفة؟ ... أم أن هذا شيء في دمه؟ ... لا يدري؛ غير أنه يحس قوة ترغمه على الجلوس قرب مكانها، وأنه يحب هذا القرب لذاته.

وعاد «محسن» فجلس، واتسعت حدقتا الفرنسي دهشة وصاح: ألا تستطيع أن تبرح هذا المكان؟!

– إنك ترى بعينيك أني لا أستطيع.

فأشار «أندريه» إلى «التياترو» بأصبعه: ولماذا لا تذهب إليها فتفاتحها بما في نفسك؟

– أأنت مجنون؟!

– أنا المجنون؟!

لفظها الفرنسي وهو ينظر إلى «محسن»، ولا يجد كلمات يصفه بها، ومضى الفتى يقول: يا عزيزي «أندريه»! ... ما زال في رأسي قليل من الإدراك، يكفي لإفهامي على الأقل أن مثل هذا الجمال، في شباك مفتوح للجمهور، لا يمكن أن يبقى حتى الآن في انتظار قدوم هذا الصعلوك الشارد الذي هو أنا!

– تريد أن تقول إن لها عشاقًا؟

– ألف عاشق وعاشق، وقد لا يحصون عدًّا … كل من حولها يحبها؛ ذرات الهواء، وهوام الفضاء، ونجوم السماء!

– كفى خيالًا وشعرًا … تكلم في الواقع … هل أخبروك أنها تحب أحدًا بعينه؟

– إنها يا سيدي محبة محبوبة.

– كيف علمت؟!

– بالفراسة.

فنضب معين الصبر من صدر الفرنسي وصاح: الفراسة أيها اللكع؟! … وهذا بابها، وهذه هي جالسة، أكاد أراها من هنا! … أقسم إني لم أرَ مثل هذا في حياتي!

فلم يحفل «محسن» لصياحه، ولم يبدِ حراكًا؛ غير أنه أرسل نظرة إلى باب المسرح، وخطر له طيف «سليم» مرة أخرى، وهو اليوم زوج لإحدى قريباته، وأب لولدين صغيرين. وقد شغل وظيفة عسكرية في مصلحة خفر السواحل، وأصبح ذا جسم ممتلئ و«كرش محترم» … أما شارباه القائمان فقد هوت بهما الأيام، واتخذت حياة ذلك الرجل الشكل المألوف في حياة «الملايين» من هذا النمل البشري، وقد ذهبت ساعات جلوسه في قهوة شحاتة ولم يبقَ لها أثر ظاهر في حياته! … طغى الزمن ببحره الطامي على أحلام الماضي، واختفت صورة «سنية» من رأس «سليم»؛ ومع ذلك فهو إن بحث اليوم في أغوار قلبه عن خير ساعات حياته، لما وجد أحلى ولا أشهى من تلك اللحظات، التي كانت تطير هباءً في جلوس طويل، بين اليأس والرجاء؛ شاخص الأبصار إلى نافذة سنية! … ذلك الانتظار الحلو المر، انتظار شيء جميل يرجو أن يحدث ولن يحدث؛ هو كل ما ظفر به قلب «سليم»، وكل قلب على هذه الأرض، من إحساسات عليا … ماذا يهم ما يتم من لقاء بعد ذلك بين حبيبين؟!

إن خفقة القلب التي كانت تهز كل كيان «سليم»، كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية، وذلك الصبر الطويل على القهوة في انتظار هذا الخيال؛ هو كل جمال الحب.

واسترسل «محسن» في تصوراته وتذكاراته، فنسي «أندريه»، وأدرك القنوط الفرنسي، فرفع يده في حركة عصبية: لا! … حقيقة لا! … إني لا أستطيع أن أنفق عمري جالسًا هكذا … إن الزمن شيء لا تعرفونه أنتم معشر الشرقيين، ولا يعنيكم أمره!

– لقد تحررنا منه.

فحملق «أندريه» في «محسن» مليًّا، ثم صاح: آه، أيها الشرقيون! … أأنتم بلهاء، أم أنتم حكماء؟ … هذا ما يحير!

– تلك عبقريتنا.

الفصل السادس

يروي الجاحظ: أن رجلًا دميمًا، تزوَّج أعرابية حسناء، هامت به، فسئل في ذلك فقال: «قرب الوساد، وطول السواد.»

ذكر «محسن» تلك الكلمة، وهو جالس يرمق أعمدة «الأوديون» من مكانه بالقهوة ذات صباح، فاهتز في كرسيه ولمعت عيناه فرحًا؛ فقد وجد السبيل الذي يسلكه مثله … إنه يعرف نفسه؛ فهو كصندوق مقفل غير مطعم بذهب ولا بفضة، وغير موشًّى بألوان ولا برسوم، ولا تبهر هيئته ولا تغر … ولكن طول الجوار قد يحمل الصادف عنه، على النظر إليه واستطلاع ما فيه، وهو إن فعل فلا شك واجد في قلبه بعض تلك اللآلئ، التي يبحث عنها الناس، ولكن كيف يدنو منها دنوًّا متصلًا، وهو غير قدير على أن يذهب إليها الآن، ليقرئها السلام، وكيف يجد «قرب الوساد وطول السواد» مع هذه؟ … وهو لا يستطيع أن يظفر من وقتها بخمس دقائق؟ … وتذكر — عند ذاك — شارع سلامة بالقاهرة؛ حيث كان يقطن منذ أعوام إلى جوار «سنية» … حقًّا لو لم تكن يد القدر قد وضعت مسكنه إلى جانب مسكنها، لما كان لتلك الفتاة مكان في حياته يومًا ما! … نعم، لا شيء اليوم يستطيع أن يخرجه من هذا اليأس غير قرب السكن والجوار «طول سواد الليل، وبياض النهار»! … ولكنه لا يعرف أين تسكن؟ … وكيف تسكن؟ … أبمفردها؟ … هذا هو الحلم الذهبي! … لا، هذا مستحيل؛ إن القدر لأقسى من أن يظفره بهذا الحلم … إنها لا شك تقطن مع أهلها! … ومع ذلك، ماذا يعنيه من هذا الأمر؟ … إنه راضٍ بالقليل؛ يكفيه منها مجرد الشعور في كل حين أنها هي جارته! … بقي عليه أن يعرف مقر سكنها، وهذا ميسور؛ ما عليه إلا أن يتبع خطاها، وهي خارجة من المسرح في المساء.

هنا وثب «محسن» وكأن الأزمة قد انفرجت؛ فهو منذ اليوم، لن يتخذ القهوة مطارًا لخيالاته المحلقة، بلا جدوى، فوق هذا المسرح! … ولكنه سينشط، ويسير في طريق الأمل،

على هدًى من أمره! ... وفرك يديه ليدفئهما من البرد، ومسح معطفه وقبعته من رذاذ المطر الذي أصابهما، وقام يمشي في الطرقات، يقتل النهار في انتظار المساء، متصفحًا: تارة وجوه حوانيت الكتب، وتارة «إعلانات» المسارح الغنائية على الحيطان، وحفلات «الموسيقى السيمفونية». إنه حتى اليوم لم يكن قد عرف موسيقى «بتهوفن» معرفة كاملة؛ فإن الحفلات السيمفونية القليلة التي حضرها لم تعقد بعد أسباب الألفة بينه وبين ذلك القلب الكبير. ولم يقنط الفتى! ... فهو يعلم أن الآلهة لا تكشف سرها لأول قادم، وأن الملوك والعظماء لا يظهرون لكل من طرق أبوابهم، إنما ينبغي الصبر الطويل على الجلوس بأعتاب الهياكل وأبواب القصور، والتوسُّل بالرغبة الصادقة في الوصول؛ فإن الصبر في الفن وفي الحب هو مفتاح الطريق! ... ووقع نظر «محسن» على برنامج حفلة موسيقية تعزف فيها السيمفونية الخامسة «لبتهوفن»، تبتدئ بعد الظهر، وتنتهي في المساء الباكر؛ فما تردد وأزمع الذهاب.

وجاء الظهر فتغدَّى في مطعم صغير، ثم أسرع إلى مسرح «شاتليه»؛ ليصغي إلى ذلك الرجل الذي أصغت إليه أجيال من البشر! ... هنالك وجد الفتى المسرح يعج بالناس، فاتخذ له مجلسًا متواضعًا في أعلى المكان، وجعل يشاهد، من عَلٍ، ذلك البحر العجاج من نساء ورجال في القاعة والشرفات! ... ولم يمضِ قليل حتى ظهر الموسيقي «جابرييل بيرنيه» رئيس الفرقة؛ بعصاه الصغيرة، ولحيته البيضاء القصيرة! ... فسكت الضجيج فجأة، وارتفعت الأيدي بالتصفيق، ثم خيَّم على المكان سكون قدسي كسكون المعابد. وشعر «محسن» بالخشوع الذي خامره في الكنيسة ذلك اليوم، وتحركت يد الأستاذ بالعصا، فإذا «بتهوفن» يتكلم بلغته السماوية، قوية أول الأمر في ذلك الـ «أليجرو» الجليل حلوة بعد ذلك، كأنها أصوات الملائكة الصافية في ذلك الـ «أندانت» الهادئ، ثم فياضة بالسرور الداخلي؛ مع ذلك الـ «سكرتزو» المشرق، إلى أن تنتهي منه إلى ذلك الفرح المتفجر؛ من أضواء أنغام الـ «برستو» الأخير.

نعم، إن هو إلا وحي السماء يتكلم، بمختلف المشاعر العظيمة التي رفعت الإنسانية إلى هذه المرتبة! ... لقد بدأ «محسن» يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التي قرأها في «نيتشه»: «كل عواطف البشرية السامية في السيمفونية الخامسة.»

وترك «محسن» المسرح وهو شارد القلب شأنه شأن بقية الناس! ... ما زالت نفسه هائمة في ذلك الجو العلوي! ... وخرج إلى الطريق، فاستقبله الهواء البارد ضاربًا وجهه، فعادت في الحال إليه نفسه، ونظر حوله فإذا الظلام ينبئه أن الموعد قد قرب، فأسرع في المشي إلى «الأوديون»، ووقف ببابه مستخفيًا وراء العمود يرقب خروج الحسناء.

دقت الساعة العاشرة، فأقفل شباك التذاكر، وخرجت الفاتنة تتهادى؛ كالغزال الذي وصفه إسحاق الموصلي بقوله:

شادن لم ير العراق وفيه   مع ظرف العراق دلُّ الحجاز

وعرف محسن هذا الشادن من مشيته ذات الدل، قبل أن يرى الظلام وجهه؛ فاختلج قلبه ولم يتحرك، وابتعدت صاحبته ... وهمست إليه نفسه: أن انطلق؛ خشية أن تختفي عن نظرك! ... فأسرع خلفها وهو كالخائف، إلى أن بلغت سلم المترو الأرضي، فنزلت إلى المحطة بعد أن أبرزت لعامل الباب تذكرة من دفتر معها، وما إن وصل «محسن» واتجه إلى شباك التذاكر، وابتاع تذكرة، ودفع قطعة فضية، واسترجع بقيتها؛ حتى كان القطار قد أقبل ومضى بالفتاة، وهو ينظر فاغرًا فاه خائب الأمل! ... وثاب إلى رشده بعد قليل، فقال لنفسه: «لم أحسب حساب دفتر التذاكر الذي معها! ... بالطبع ينبغي أن يكون مع مثلها هذا الدفتر، وهي التي تقطع عين الطريق، آتية غادية مرتين في اليوم! ... لا بأس! ... لا فائدة من الحزن والندم؛ غدًا أعيد الكرَّة بعد أن أعدَّ عدتي.»

وجاء الغد، فحصل على دفتر تذاكر من الدرجة الثانية، وانتظرها ثم اقتفى أثرها حتى المحطة، وجاء قطار «المترو»، فاندفع هو إلى عربة في الدرجة الثانية، ونظر خلفه فإذا هي تصعد إلى عربة في الدرجة الأولى ... وسار القطار ولا اتصال بين العربات ... والمحطات كثيرة ولم يعرف في أيتها نزلت الفتاة! ... وضاع أثرها أيضًا منه في هذه المرة، فسخط وثار على نفسه صائحًا: إنها الخيبة والبله بعينه! ... ألا أستطيع أن أقتفي أثر إنسان عشرة أمتار؟! ... ثم هدأ وابتسم وقال كالحالم: «ما كنت أعتقد أن مهنة البوليس السري بهذه الصعوبة.»

غير أن هذه التجارب الخائبة قد نفعت الفتى في اليوم الثالث، فقد احتاط للأمر من كل جانب، ولم يغفل عن الفتاة طرفة عين، وصعد معها في عربة واحدة، وجعل يراقبها عن كثب دون أن يظهر لعينيها حتى بلغ «المترو» محطة «بورت دي ليلاس» فنزلت، فأسرع ونزل خلفها! ... وسارت في طريق طويل، تنبت على جانبيه أشجار الزيزفون والكستناء، فتبعها متواريًا، بين لحظة وأخرى، خلف جذوع الأشجار، إلى أن بلغت فندقًا يدعى «فندق زهرة الأكاسيا» فدخلت.

لم يفعل «محسن» شيئًا بعد ذلك، غير أن عاد أدراجه وهو لا يمشي على الأرض ... ولكنه يطير راقص القلب؛ فقد عرف منزلها.

وفي صباح الغد نهض «محسن» مبكرًا، وفتح حقائبه، وحشر فيها ثيابه وكتبه حشرًا، وودع العجوز الدهِشة على عجل! ... وأعطاها رسالة سريعة؛ كي تسلمها إلى «أندريه» وزوجته، ووضع أمتعته في «تاكسي»، وهو يقول للمرأة العجوز: قبِّلي عني الصغير «جانو»! ... غدًا يخبرك «أندريه» عن سر هذا كله ... إلى اللقاء.

والتفت إلى سائق السيارة وهمس: «إلى بورت دي ليلاس» فندق «زهرة الأكاسيا».

وما كادت السيارة تختفي حتى ثابت العجوز إلى رشدها، وقالت متنهدة: هذا الذي كنا نحسبه عاقلًا!

كانت السيارة تسابق الريح، وقلب «محسن» يسابق السيارة وهو كأنه قد ظفر بإيوان كسرى! ... ما كل هذا الفرح؟ ... ألأنه رآها تدخل فندقًا؟! ... وإذا ظهر بعد هذا كله أنها لا تقطن هذا النزل، وأنها ذهبت زائرة؛ أما كان ينبغي له أن يتريث، ويستوثق من الأمر، قبل هذا الركض الجنوني بأمتعته؟!

هنا اصفر وجهه قليلًا، وخشي أن يكون قد فقد أثرها أيضًا هذه المرة؛ غير أنه لم يرَ إلا أن يمعن في السير، وأن ينزل هذا الفندق؛ فقد فات أوان الرجوع، ووقفت السيارة بباب الفندق وأنزلت الأمتعة، وقادته المديرة إلى الحجرة رقم ٤٨ في الطابق الخامس.

وكان كل ما يطمع فيه «محسن» وقتئذٍ، أن يعرف هل تقطن هنا حقًّا صاحبته؟ ... وفي أي طابق وأي حجرة؟ ... ولكن كيف يوجه السؤال وهو لا يعرف اسمها؟ ... ودخل الفتى حجرته، فألفها صغيرة نظيفة، ذات نافذة تطل على فضاء، فهذا الحي هو طرف قصي من أطراف باريس، باب من أبوابها، كما ألفى مطبخًا صغيرًا ملحقًا بالحجرة، معدًّا بأحدث معدات تهيئة الطعام، من موقد وفرن صغير، يشعل بغاز يأتي في أنابيب، إلى أدوات لشواء اللحم، وخزائن لوضع الأواني، وحوض ماء؛ فهذا الفندق معد لسكن الأسر الفقيرة، كل حجرة بملحقها معدة؛ كأنه مسكن مستقل.

ولبث «محسن» في حجرته ذلك اليوم، يشتغل بإخراج أمتعته وكتبه، وتنظيم أمره في تلك الحجرة، وهو يقول فرحًا: «لقد أصبح لي مطبخ، إني سأحتاج إليه من غير شك أيام العسر والإفلاس؛ فإن أكلة في المطعم تنفق على هذا المطبخ البسيط ثلاثة أيام.»

نام «محسن» ليلته الأولى في ذلك المقر الجديد نومًا ثقيلًا؛ فلقد قرأ البارحة كثيرًا وتأمل كثيرًا ... وهو — إذ يفعل ذلك — لا يستيقظ دائمًا قبل التاسعة، ولكنه في هذا الصباح

نهض قبل السادسة وثبًا من فراشه على صوت فاتن، يغني كأنه طائر جميل هذه الأغنية المشهورة في رواية «كارمن»:

«الحب طفل بوهيمي! …
لا يعرف أبدًا قانونًا.»

فأسرع إلى النافذة، وبحث عن الصوت؛ فإذا فتاته في «روب دي شامبر» نسائي من الحرير الأبيض، تنظم «أزهار البنفسج» في أصص على حافة النافذة التي تحت نافذته! … هي؟ … هنا؟ … تعيش في حجرة أسفل حجرته؟! … وثب قلب «محسن»، ونبض نبضات؛ خيِّل إليه أنها سمعتها ولكنها مضت في غنائها:

«إذا لم تحبني فأنا أحبك،
وإذا أحببتك فالويل لك.»

الفصل السابع

أسرع «محسن» وارتدى ثيابه، ووقف بباب الفندق ينتظر خروجها؛ فهو قد أدرك أنها لا بد خارجة بعد قليل! ... وهو يعلم أن شباك تذاكر «الأوديون» يفتح في الساعة الحادية عشرة. ولم يخب ظنه؛ فقد سمع صوتها بعد لحظة وهي تنزل السلم سائلة صاحبة النزل عن بريد الصباح، فاستعد وضبط أعصابه، وما كادت تدنو منه حتى تقدم إليها، ورفع قبعته السوداء، فرفعت أهدابها الجميلة وسددت إليه عينيها الفاروزيتين، فأرتج عليه، ولم يعرف كيف يبدأ الكلام! ... وخيِّل إلى الفتاة أنها رأت هذا المعطف، وهذه القبعة السوداء من قبل، وبدا على وجهها أنها تذكرته! ... فما إن رأى «محسن» منها ذلك حتى قال من فوره: نعم، أنا هو.

فابتسمت قليلًا؛ غير أنها قالت: هو من؟

فخجل الفتى وارتبك، ورأت الفتاة خشونة ردها عليه فاستدركت: إن لم أخطئ الظن، فأنت يا سيدي «زبوني».

– نعم، أنا هو «زبونك» الدائم! ... ولي الشرف أن أكون كذلك.

– وما جاء بك إلى هذا الحي الذي لا يعرفه الأجانب؟ ... معذرة من فضولي.

– فضولك يا سيدتي هو كل ما أرجو وما أحب ... جاء بي إلى هذا الحي ... الفضول.

فابتسمت وقالت: أيضًا!

– بل شيء أكبر جدًّا من هذا.

واحمر وجهه قليلًا، وخشي أن يكون الموقف قد طال، وأنه قد قطع عليها السير، فأبدى لها أسفه سريعًا ... وتنحَّى عن طريقها واستأذنها في أن يسير إلى جانبها قليلًا حتى يتم حديثه ... فأذنت له ومشيا إلى محطة «المترو» وهو يقول: إني جئت إليك أحجز محلًّا لمشاهدة قصة هذا المساء.

– شباك التذاكر ليس هنا! ... إنه هناك في المسرح.

– وما يمنع أن يكون في أي مكان تحلين فيه؟! ... هو الذي يجب أن يتبعك! ... ككل شيء وكل إنسان.

فالتفتت إليه تستجلي أمره؛ وكأنما أدركت قليلًا حقيقة غرضه: وكيف عرفت أني أقطن هذا الحي، وهذا الفندق؟

– عجبًا! ... أتقطنين هذا الحي، وهذا الفندق؟! ... إذن أنت تقطنين هذا الحي وهذا الفندق.

فنظرت إليه فاحصة؛ كمن ينظر إلى مخلوق عجيب، ولكنه مضى يقول: وافرحتاه! ... أنا أيضًا أقطن هذا الحي، وهذا الفندق.

فقالت في لهجة المستريب: منذ زمن طويل؟!

– منذ ... لست أدري ... نعم، منذ زمن طويل.

فلم تنبس الفتاة، وساد بينهما صمت عميق ... وشعر «محسن» ببرد يكتنف الموقف ورأى محطة «المترو» وقد أصبحت منهما على قيد خطوات، وخشي أن تضطره هي فجأة إلى الافتراق عنها، ولم يقل بعد شيئًا يثبت إلى الأرض هذه الصلة الطائرة ... فاندفع يقول في غير تبصر: ما أجمل هذا الصباح! ... لقد استيقظت على أغنية «كارمن» تتصاعد من نافذة تحت نافذتي ... ولكن ... بأي صوت وأي غناء!

وكأن الفتاة لم تسمع شيئًا؛ فقد لزمت الصمت، وكانت قد دنت من سلم «المترو» الأرضي فالتفتت إلى «محسن» ومدت يدها إليه قائلة، في صوت كله تحفظ، كأنما تخاطب شخصًا لا تعرفه، ولا تحرص على أن تعرفه: عم صباحًا يا سيدي.

وهبطت السلم، واختفت في لمح البصر، تاركة الفتى في مكانه، كتمثال من الرخام قد غطاه الجليد.

ثاب «محسن» إلى رشده ولكن الدهش لم يفارقه، لماذا تركته على هذا النحو؟! ... أكان مسرفًا في حديثه؟ ... ولكن لماذا؟ ... وماذا كان يجب عليه إذن أن يقول؟!

واسترسل في التفكير برهة، يقلب الأمر على وجهه ... إلى أن انتهى به حديث النفس إلى شاطئ هادئ: الرجاء، والرضا بما حدث حتى اليوم، فإن حياته منذ اليوم إلى جوارها شيء ليس بالقليل، بل إنه الآن يستطيع أن يعرف عنها الكثير ... يستطيع أن يعرف اسمها على الأقل، وأن يعرف مع مَن تعيش هنا.

ولم يفكر «محسن» أكثر من ذلك، فقد جرى لساعته إلى الفندق، وصعد إلى الطابق الرابع، وبحث عن الحجرة التي تقع أسفل حجرته، وقرأ رقمها: «٣٨» ... ثم نزل في الحال إلى صاحبة الفندق، فحيَّاها في ابتسامة رقيقة، وحرك شفتيه مترددًا لا يدري بعد، كيف يصل إلى غرضه دون أن يبدو عليه شيء، ولكن المرأة ابتدرته: أراضٍ عن حجرتك يا سيدي؟

ففتح هذا السؤال الطريق للفتى، وقال: لا بأس بها ... وإن كنت أفضل الحجرة السفلى.

– السفلى! ... في الطابق الرابع؟ ... إنها مشغولة يا سيدي.

– تشغلها أسرة؟

– كلا يا سيدي ... بل آنسة بمفردها.

فأخفى الفتى سرورًا كاد يشرق به وجهه: بمفردها؟

ثم استطرد في الحال:

– نعم! ... إن الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا كالشاب، تسعى وراء رزقها بمفردها! ... نعم! ... هذه الآنسة، إن صدق ظني؛ فهي عاملة شباك التذاكر بمسرح «الأوديون».

– صدق ظنك يا سيدي.

– نعم! ... إني أختلف إلى «الأوديون» كثيرًا ... هي، إن صدقت ذاكرتي: «مدموازيل ... ماري»؟

فابتسمت المرأة ابتسامة، لا أحد يدري؛ إن كانت تنم عن خبث ومكر وإدراك، أم أنها لا تنم إلا عن بساطة وملاطفة: خانتك ذاكرتك هذه المرة يا سيدي؛ إنها تدعى «مدموازيل سوزي ديبون».

– «سوزي»؟

انزلق هذا اللفظ من بين شفتيه، وهو في نشوة من فرح داخلي يشبه الذهول! وتنبه من فوره، وضبط نفسه، والتفت إلى المرأة وقال: أشكرك يا سيدتي على هذا الوقت الذي أضعته عليك ... أشكرك.

ثم تركها وخرج إلى الطريق سريعًا يهمس: «سوزي».

قضى «محسن» بقية الصباح جالسًا على مقعد في حديقة «لوكسمبرج» سارحًا في أحلامه الكثيرة ... لقد كان يأتي إلى هذا المكان بعد ظهر الأيام الأولى من مجيئه إلى

باريس، وكان يصحبه مواطن أكبر منه سنًّا … وكان هذا شيخًا يدرس في الأزهر، وقد جاء «باريس» ليكمل دراسته العليا، ليس كما كان «محسن» يدرس الحقوق والآداب، ولكن لدراسة الدين المقارن.

لقد كان حرًّا طليقًا … يحب في باريس النساء، وكان عقله لا يتفتح لأي أدب، ما عدا النصوص الدينية في الكتب المقدسة، وحتى هذه ما كان يدرك كل معانيها الخفية.

وكان من عاداته أن يتنزه في حدائق «لوكسمبرج» للتطلع إلى سيقان السيدات الجميلات.

وفي الليلة التي كان يزمع فيها العودة إلى مصر، قص على «محسن» قصة مسلية، قال: تعرفت يومًا على شيخ ذي لحية بيضاء في الحديقة، جاء مثلي يتأمل السيقان الجميلة، وكان اسمه «أناتول» … وكنا نتقابل عصر كل يوم على نفس المقعد، ونتفرج معًا على نفس الشيء، وقد جمع بيننا غرض واحد، وظروف واحدة.

وفي عصر يوم التقيت بصديقي «أناتول» في شارع «سان ميشيل»، فسرنا معًا، وقد تشابكت الأذرع بيننا في صداقة ومحبة، ثم اتجهنا إلى الحدائق … وكان في ذلك الوقت ينعقد مؤتمر الصلح في «فرساي»، وكانت مصر قد أرسلت وفدها الوطني إلى باريس ليسمع صوتها، ومطالبتها بالاستقلال.

وما إن وصل الوفد إلى باريس حتى وجد كل الأبواب موصدة في وجهه، ولم تقبل أي جريدة أن تكتب سطرًا واحدًا عن مهمة الوفد، وكاد يفشل في مهمته.

وبينما كان واحد من رجال الوفد يتمشَّى صدفة في شارع «سان ميشيل» حتى رآني وأنا ممسك بذراع الشيخ، فعرفني على التو، وكانت فرحته لا تقاس، وكأني هبطت عليه من السماء.

قال: أتعرف جيدًا هذا السيد؟

قلت: أي سيد … هذا العجوز الذي يصاحبني؟!

قال: نعم … هذا أكبر كاتب في باريس.

قلت: هذا المخرف؟!

– إنه «أناتول فرانس» بعينه … بلحمه ودمه … ألم تسمع قط الناس يتكلمون عن «أناتول فرانس»؟

– نعم.

– يا غبي! يكفينا منه سطران وننجح في مهمتنا.

– ماذا؟! ... من ذلك العجوز أناتول؟

– حاول أن تقدمني إليه، فإنك بذلك تقدم خدمة للوطن.

ولبثت لحظة دهِشًا فاغر الفم ... ثم أخذت أبحث عن صديقي «أناتول» ... وأخيرًا عثرت عليه في مقعده المعتاد، واقتربت منه، ولأول مرة تكلمت معه في شيء من الاحتشام قائلًا: سيدي ... أنت رجل عظيم ... أنت أكبر كاتب في فرنسا ... اغفر لي غباوتي.

دهش «أناتول فرانس» في بادئ الأمر، ثم قال، وعلامات الحزن بادية عليه ... لقد كشف سره ذلك الدخيل الذي التقى بنا في الطريق. ثم مدَّ لي يده قائلًا: يا للخسارة! ... لقد انتهت صداقتنا.

وتركني لأسير وحيدًا.

ولم تمضِ بضعة شهور حتى كان «أناتول فرانس» يكتب مقدمة لكتاب «صوت مصر» نشره «فيكتور مرجيت» يدافع فيها عن مصر واستقلالها.

الفصل الثامن

أنفق الفتى ما تبقَّى من ذلك الضحى هائمًا على وجهه في طرقات ذلك الحي، جاعلًا من شأنه البحث عن مطعم رخيص، يلجأ إليه في أيام الضنك، وهي كل الأيام، عدا اليوم الأول والثاني من كل شهر … وقد وجد ضالته في شارع «مونيلمونتان»! … إنها شبه «حانة» توسم فيها النظافة مع قلة النفقة؛ فقد قرأ في لوحة من ورق «الكرتون» معلقة على بابها، أن ثمن الأكلة الكاملة مع زجاجة من النبيذ خمسة فرنكات بالتمام. وكان الظهر قد أقبل؛ وأحس «محسن» الجوع، فدخل ذلك المطعم، واتخذ له مجلسًا في أحد الأركان؛ وجاء الغلام، فطلب إليه شريحة من لحم الثور، مشوية مع البطاطس، واعتدل في جلسته مطمئنًا يفحص وجوه الحاضرين … إنهم جميعًا من طبقة العمال، أولئك الذين ينبذون الشوكة والسكين ويقطعون الخبز واللحم بمدية الجيب.

ولكن الفتى لم يأنف من تلك السواعد العارية، والجباه المتصببة عرقًا، والثياب التي تقطر بؤسًا. فـ «محسن» لا يشعر دائمًا أنه في مكانه، إلا بين أمثال هؤلاء، وهو يوم يدفعه الرخاء إلى مطعم فاخر؛ فإنه يدخله دائمًا خائفًا كالغريب. وجعل الفتى يقطم رغيفه قطمًا خفيفًا في انتظار الغداء، ويصغي في أعماق نفسه إلى تلك الرباعية من رباعيات «عمر الخيام»:

إذا أردت أن تعرف الصفاء والسلام … فاحدب على تعساء الحياة، أولئك الضعفاء الفقراء الذين يرتعدون في شقائهم، عندئذٍ تظفر بالسعادة.

نعم إنه فعلًا يجد في نفسه الآن شيئًا من تلك السعادة الهادئة الصافية، في هذا المكان المتواضع. وسمع حوارًا على مقربة منه؛ بين صاحب المطعم البدين وبين عامل من العمال شاحب الوجه حاد النظرات: لن أتناول اليوم لحمك؛ إني مريض.

فقال صاحب الحان مشفقًا: نعم! ... أرى ذلك ... إنك تعيش وحدك فيما أعلم يا مسيو «إيفان».

– إني دائمًا وحدي في الحياة.

هذه العبارة الأخيرة استرعت التفات «محسن»، لا لأنها ذات نغم حزين، بل لأن الفتى كان يتصور أنه، هو وحده، الذي يحيا دائمًا وحده في الحياة ... إنه يعلم أن المعتزلة اليوم قليل؛ ولكم يشعر بحب وتقدير لأولئك الذين لا تطيب لهم السكنى إلا داخل أنفسهم؛ ذلك أن قليلًا من الناس من يملك نفسًا رحبة غنية يستطيع أن يعيش فيها وأن يستغني بها عن العالم الخارجي ... إنه يعتقد دائمًا أن الزاهدين الحقيقيين ليسوا إلا أناسًا، لهم نفوس كالفراديس، تشقها الأنهار، وتنيرها الشموس، وتتلألأ فيها الكنوز؛ فهي عالم من الفتنة والسحر، لا نهاية لبدائعه وأسراره.

وأبطأ طبق الحساء على جاره العامل المريض، فأبصره قد أخرج من جيبه كتابًا، جعل يلتهم صفحاته بدل الطعام، وود «محسن» لو عرف عنوان الكتاب! ... دفعه حب الاستطلاع إلى أن يميل بجسمه ويختلس النظر، ففاجأته عين الرجل، فارتبك الفتى وأشار إلى الكتاب: معذرة هذا الفضول مني! ... إني أحب الكتب، لا شك في أنه كتاب لذيذ.

فأرسل إليه الرجل نظرات عميقة، ولم يقل شيئًا، لكنه مد يده، ورأى الفتى العنوان على الغلاف، فاستطاع «محسن» أن يقرأ:

«رأس المال»: كارل ماركس.

لم يمضِ النهار حتى نشأت صداقة وديعة بين «محسن» وذلك العامل الفقير، وقد أنس أحدهما إلى الآخر؛ كما يأنس الغريب إلى الغريب، وهو الواقع ... فهذا الرجل روسي، ترك بلاده منذ بضعة أعوام، وهو أيضًا من أولئك الذين يعيشون على القراءة والتفكير والوحدة، وقد دعا الفتى إلى حجرته الصغيرة التي يقطنها في إحدى دور العمال، فرأى «محسن» الكتب مكدسة في كل مكان، ولم يستطلع «محسن» شيئًا عن دخيلة الرجل، لكنه أحس أن الرجل قد فرح بمعرفته فرحًا عميقًا؛ فقد قال وهو يعد له الشاي، على موقد في أحد الأركان: لكم أشعر أن وطأة مرضي قد خفت قليلًا منذ لقائنا، لست أدري لماذا.

وقدم للفتى قدح الشاي، وجلس هو على صندوق قديم من الخشب الأبيض؛ فقد أكرم ضيفه بالكرسي الوحيد في الحجرة، ورشف «محسن» رشفة وهو يقول: وأنت يا مسيو «إيفانوفتش» ألا تحب الشاي؟

– إني أفضل جرعة من «الفودكا» ... آه ... إن هذا الشراب مع «تولستوي» هما كل ما أحب الآن من الروسيا.

ولمح «محسن» بعض المرارة في كلام الرجل، فقال له في سذاجة: كيف ذلك؟ ... إن الروسيا الآن هي جنة الفقراء.

فأجابه الرجل كالمخاطب لنفسه: أتظن؟ ... إن جنة الفقراء لن تكون على هذه الأرض.

وصمت الرجل قليلًا، ثم قام إلى زجاجة «الفودكا» فتناول منها جرعة وهو يقول: أنت أيضًا ممن يعتقدون في هذه الخرافة؛ جنة الفقراء؟! ... إني فكرت في أمرها كثيرًا، ومن ذا الذي لم يفكر فيها؟ ... تلك مشكلة الدنيا التي لم تحل؛ «وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الأرض»! ... من أجل هذه المشكلة وحدها ظهرت الرسل والأنبياء.

– يا مسيو «إيفان» ... لست أرى رأيك في أن المشكلة لم تحل! ... إن الأنبياء قد جاءوا من السماء بخير الحلول.

فتفكر الرجل قليلًا، ثم قال كالمخاطب نفسه: أنبياؤكم أنتم؟! ... نعم هذا من الجائز! ... إن الشرق قد حل المعضلة يومًا ما ... هذا لا ريب فيه؛ إن أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض، وأنه ليس في مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء؛ فأدخلوا في القسمة «مملكة السماء»، وجعلوا أساس التوزيع بين الناس «الأرض والسماء» معًا، فمن حُرم الحظ في جنة الأرض، فحقه محفوظ في جنة السماء! ... هذا جميل! ... ولو استمرت هذه المبادئ، وبقيت هذه العقائد حتى اليوم، لما غلى العالم كله في هذا الأتون المضطرم. ولكن «الغرب» أراد هو أيضًا أن يكون له أنبياؤه «الذين يعالجون المشكلة على ضوء جديد»، وكان هذا الضوء منبعثًا هذه المرة، من باطن الأرض، لا آتيًا من أعالي السماء ... هو ضوء العلم الحديث؛ فجاء نبينا «كارل ماركس»، ومعه إنجيله الأرضي: «رأس المال»، وأراد أن يحقق العدل على هذه الأرض، فقسَّم «الأرض» وحدها بين الناس، ونسي «السماء»، فماذا حدث؟ ... حدث أن أمسك الناس بعضهم برقاب بعض، ووقعت المجزرة بين الطبقات تهافتًا على «هذه الأرض».

تأمل «محسن» قليلًا هذا الكلام، ثم قال كالمخاطب لنفسه: كمن يلقي تفاحة بين أطفال يتلمظون.

– لقد ألقى قنبلة «المادية والبغضاء واللهفة والعجلة» بين الناس، يوم أفهم الناس أن ليس هنالك غير «الأرض»، يوم أخرج «السماء» من الحساب؛ لأن علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء! ... أما أنبياء الشرق فقد ألقوا زهرة «الصبر» والأمل في النفوس، يوم

قالوا للناس: «لا تتهالكوا على الأرض؛ ليست الأرض كل شيء! ... إن هنالك شيئًا آخر غير «الأرض» سيكون لكم شيء آخر يدخل في «التوزيع»! ... إن الإنسان لا يحيا من أجل الخبز، كما أنه لا يعيش من أجل الخبز وحده ... آه! ... إن أنبياء الشرق هم العباقرة حقًّا!»

وصمت الرجل قليلًا، ثم مضى يقول: إن روح «المسيحية»، كما نبعت في الشرق، هي: المحبة، والمثل الأعلى. وروح «الإسلام»: الإيمان والنظام. ومسيحية اليوم الجديد في الغرب، هي: «الماركسية»، وهي كذلك لها مثلها الأعلى، لا في محبة الناس بعضهم بعضًا، وتبشير الفقراء بـ «مملكة السماء» وحضهم على إعطاء ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؛ بل بإغرائهم بمملكة، تقام على أنقاض طبقة، وأشلاء طبقة، ونصحهم بالهجوم على قيصر، وأخذ ما لقيصر! ... وإن «إنجيل» هذا الدين: كتاب «رأس المال» تجد أيضًا في بعض صفحاته تنبؤات مخيفة؛ كتنبؤات «يوحنا» في رؤياه؛ ففيه توعد بانهيار هذا العالم، وحلول عالم آخر قوامه العمال وحدهم! ... أيُّ أجسام تسير بغير رءوس فوق المناكب؟! ... يا له من حلم مخيف!

أما «إسلام» العصر الحديث في الغرب: فهي «الفاشية»، وهي كذلك لها طابع الإيمان والنظام! ... إيمان لا بالله، بل «بزعيم» من البشر ونظام لا يؤدي إلى التوازن الاجتماعي بالتواضع والزكاة؛ إنما هو نظام فرضته يد الإرهاب؛ ليؤدي إلى مطامع الاستعمار، والوثوب على الضعيف من الشعوب! ... ولهذا الدين أيضًا «كتابه» وخطبه «المنبرية» الملتهبة، لا بحرارة عقيدة سماوية، ولكن بحرارة قوة حيوانية، وشراهة دموية! ... آه أيها الصديق ... تلك هي الديانات التي استطاع الغرب أن يخرجها للناس، يوم أراد أن يزاحم الشرق ويخرج للعالم أديانًا!

فرفع «محسن» رأسه بعد إطراق طويل، ثم قال: يدهشني منك هذا القول يا مسيو «إيفان»، وأنت من العمال!

– نعم؛ أنا من العمال، ومن الفقراء ... لكن، لي من سوء الحظ رأس يفكر؛ إني أعرف أن وعود أديان «الغرب» الجديد كلها ... إن هي إلا تغرير بالعمال والفقراء ... إن «الماركسية» و«الفاشستية» قد أخذتا عن أديان «الشرق» طرقها وأساليبها، وفهمتا جيدًا أن كل خطة النبي هي استمالة الساخطين والمتذمرين والمعوزين، وهم الكثرة الغالبة! ... هكذا فعل «عيسى» و«محمد»! ... هل تبعهما، أول الأمر غير العبيد والأرقاء والفقراء والضعفاء؟ ... ذلك أن طبقة الراضين والموسرين ليست في حاجة إلى أن تتبع أحدًا! ...

وهي مع ذلك قلة نادرة، وسط خضم الدهماء؛ فالدهماء هم سند الدين، وهم القوة في كف النبي! ... لقد أدرك ذلك جيدًا أنبياء أوروبا في العصر الحديث ودرسوا Technique النبوة على أيدي الأساتذة الشرقيين، فبنوا كل شيء على أساس واحد: «الدهماء»! ... وجعلوا يتنافسون في إرضاء هذه الكتل الآدمية بالوعود: وعود واقعية قريبة الأجل، وهنا كل غباء هؤلاء «الأنبياء»! ... إن التنافس بين الدينين ليبدو لي شديد الخطر! ... وإني لأتنبأ لك، منذ الآن، بوقوع نوع من «الحروب» بين «الماركسية» و«الفاشستية» تحشد فيها الدهماء ضد الدهماء، وتتناثر فيها الجثث ... وتتطاير الأشلاء ... هذا كل مكسبنا ... إنهم لن يبقوا لنا حتى على ذلك الوهم اللذيذ، والعزاء الجميل الذي غمرنا فيه أنبياء الشرق الحقيقيون.

– أي وهم وأي عزاء؟!

– جنة السماء، ومملكة السماء.

– أتسمي هذا وهمًا؟!

– آه ... معذرة ... معذرة! ... إنك مؤمن! ... ما أسعدك أنت! ... وما أحسن حظك!

الفصل التاسع

خرج «أندريه» من العمل في استراحة الغداء، فوجد رسالة من «محسن» تنتظره، فلم يدهش؛ إن رسائل «محسن» إليه قد كثرت، منذ أن غادر منزل الأسرة في «كوربفوار» جاريًا خلف قلبه … فض «أندريه» الرسالة، وقرأ:

عزيزي «أندريه»

لم أزل أستيقظ على غنائها، لكن هذا الصباح قد حدث أمر جلل. بينما أنا قرب النافذة، أصغي إليها خفية، إذا بالباب يطرق، وإذا «الغسالة» قد حملت إليَّ ثيابي النظيفة، وقدمت إليَّ ورقة الحساب: عشرة فرنكات، فلمعت في ذهني عند ذاك فكرة أعجبتني، وأرجو أن تعجبك؛ ذلك أني تناولت الورقة وسطرت في ذيلها: «سيدتي! … لا أجد معي الساعة نقودًا، فإذا تفضلت وأديت عني الحساب؛ فإني لا أنسى لك هذه اليد، ولك جزيل الشكر سلفًا مع احترام المخلص: جارك رقم ٤٨.» ودفعت الورقة إلى الغسالة، وأحلتها على الحجرة السفلى، التي تقطنها جارتي «مودموازيل، س».

ومضت الغسالة بالفعل، وبقيت أنا أرتجف قلقًا … أتراها تؤدي عني؟ … وا خجلتاه إذا رفضت! … وإذا قبلت فما يكون معنى هذا؟ … ينبغي أن أبادر فأبشرك؛ لقد عادت الغسالة إليَّ بعد هنيهة، تقول في ابتسام: إن «مدموازيل س، جارتي، قد دفعت في الحال دون أن تنبس بلفظ.»

ماذا تقول في كل ذلك؟

محسن

ابتسم «أندريه» وطوى الرسالة، وأشعل لفافة تبغ ودخن قليلًا، ثم أخرج ورقة وكتب:

عزيزي «محسن»

ماذا أقول في كل ذلك؟ ... أقول: إن عهدي بالمحبين أن يظهروا دائمًا أمام الفتيات، بمظهر النعمة واليسر والرخاء، وأن يكونوا هم على الأقل الدائنين وقت الاقتضاء، ولكنك قد عكست الوضع، وأصبحت مدينًا لفاتنتك بكل شيء؛ أي: «بالقلب وبفاتورة الحساب» ... إن مسألة التجائك في الاقتراض إلى «مدموازيل س»، ولما تتوثق بينكما المعرفة؛ لغاية في الجرأة! ... وإني لأعجب جدًّا من هذا الحادث، وأرى فيه فجر عهد جديد في تاريخ الغرام.

أندريه

مرت أيام بعد ذلك، والفتاة تصادف الفتى، تارة بباب الفندق وتارة في المصعد، ولا غرابة في ذلك، فهما متحدان في المسكن. إنما الغريب في الأمر أنه منذ أن أدت عنه الحساب لم يعد يقبل عليها؛ ذلك الإقبال الذي كانت تراه منه، ولم يعد يحييها إلا تحية مختصرة. وإذا جمعهما المصعد، فهو مطرق لا يريد أن يتكلم، ولا أن يشير بحركة تنم عن اهتمام لأمرها، هو الذي كان ينتظر منه أن يبادر فيشكرها على عطفها الكريم ... إنه لم يشكرها، بل إنه لم يشر قط إلى ما حدث بذكر أو تلميح. وانفردت «سوزي» في حجرتها ذات مساء، وجعلت تفكر قليلًا في أمر هذا الفتى الغريب: أهو شرقي، متوحش، لا يعرف الأدب واللياقة؟! ... لكن الأمر في ذاته أبسط من أن يحتاج إلى معرفة بالأدب أو اللياقة، ولا يمكن أن يكون ذلك الفتى جاهلًا، إنما هو تصرُّف مقصود، لماذا؟ ... هذا ما لم تهتدِ إليه الفتاة ... إن هذا الفتى غريب الأطوار ... هذا كل ما تستطيع أن تفهمه.

لم يكد الأسبوع ينتهي، حتى تلقَّى «أندريه» هذه الرسالة:

عزيزي «أندريه»

الآن، آن الآوان أن أفي بديني، ولا يليق أن أرد إليها عشرة فرنكات، إنما يحسن بي أن أقدم إليها هدية ... ماذا ترى أن تكون هديتي إليها؟ ... أشِر عليَّ سريعًا.

محسن

فأسرع الفرنسي وأرسل الجواب:

عزيزي «محسن»

إن «باريس» كلها لم تخلق إلا للنساء، وكل تجارة باريس هي في الهدايا التي تقدم إلى النساء ... ما عليك يا صاحبي إلا أن تمشي قليلًا في أي شارع من شوارع باريس؛ فإنك واجد عشرات الحوانيت، التي تعرض ما تشتهي لصاحبتك من حقائب اليد، وصناديق «البودرة» والقبعات والجوارب والعطور والأزهار. وقد مضى أن نصحنا لك من هذا القبيل ولم تقبل النصح.

أندريه

قرأ «محسن» هذه العبارة، وردد كالمخاطب، في غير اقتناع: حقائب يد، وصناديق «بودرة»، وأزهار وعطور؟! ... أشياء لا معنى لها؛ إنك أحمق يا مسيو «أندريه».

ثم مزَّق الرسالة، ووضع القبعة السوداء على رأسه، ونزل إلى الطريق هائمًا على وجهه، طول يومه، في شوارع باريس؛ يفكر ويبحث عن الهدية، دون أن يدخل حانوتًا، أو يرسل عينيه إلى وجه متجر، فهو لم يعتد النظر إلا إلى وجهات حوانيت الكتب! ... وقادته قدمه مصادفة، آخر الأمر، إلى سوق الطيور في الضفة اليمنى من نهر السين! ... وقرع سمعه صوت ببغاء صغير، ينادي المارة بصفيره وكلماته الملقنة، فرفع «محسن» بصره، وتفكَّر هنيهة، ثم دخل الحانوت لوقته وابتاع الببغاء، وخرج حاملًا قفصًا، ينبعث منه صفير وضجيج، ومشى به مشية المنتصر الذي ظفر بضالته! ... ولكنه لم يسِرْ خطوات في الطريق، حتى وجد القفص الذي في يده قد تبعته القطط والكلاب الضالة؛ وإذا منظره، وهو حامل الببغاء، وكلاب الحي خلفه؛ قد بدأ يستلفت أنظار المارة! ... وخشي أن يجتمع حوله العالطون والصغار، فاستأجر سيارة حملته مع الهدية إلى الفندق.

وما إن أوى «محسن» إلى حجرته حتى خلع ثيابه على عجل، وجلس إلى ببغائه طول الليل ساهرًا، يلقنه كلمات وعبارات ... إلى أن رضي عن هذا التلميذ الصغير، فوضع في عنق قفصه حبلًا رقيقًا، وفتح نافذته، وأدلى بالقفص في الفضاء إلى أن حط على حاجز الفتاة، ثم جعل يناجيه؛ مناجاة «حافظ الشيرازي» للببغاء في قصيدته التي قال فيها:

«أيها الببغاء! ... أيها الناطق بالأحاجي! ... احرص إلى الأبد على ريشك زاهيًا في لون الياقوت، وعلى قلبك فياضًا بالمرح! ... آه أيها الحظ! ... اسكب على وجوهنا ماء الورد ولا

تبُحْ للصاحي بأسرار النشوة! ... نعم ... إن الحكمة هي الثراء الحقيقي، ولكن ... كم تساوي إلى جانب نظرة الحب؟!»

استيقظت «سوزي» في الصباح، واتجهت إلى نافذتها مترنمة كعادتها، وما كادت تفتحها حتى رأت نفسها أمام ببغاء في قفص، فدهشت! ... ثم أبصرت الحبل المدلى، فأدركت من أين هبط، فرفعت عينيها إلى الطابق العلوي، وإذا الفتى في نافذته يبسم لها؛ كأنما كان في الانتظار، وحيَّاها تحية الصباح فردت التحية باسمة، ثم أشارت إلى القفص قائلة: لمن هذا؟

– لك!

– لي أنا؟ ... شكرًا لك يا سيدي ... ولكن لماذا؟

– هذا ما استطعت أن أقدمه إليك، اعترافًا بجميلك؛ فأرجو أن تقبليه مني.

– ما أجمل هذا الببغاء! ... ما اسمه؟

– اسمه ... «محسن».

– «محسن»؟

وما كادت الفتاة تنطق هذا الاسم حتى صفر الببغاء وصاح: أحبك ... أحبك ... أحبك!

فضحكت «سوزي» وقالت: عجبًا! ... من لقنه هذه الكلمات.

فأجاب الفتى لفوره: لا أحد ... «في عينيه نظر» ... هذا كل ما في الأمر.

فابتسمت الفتاة لهذا الجواب وقالت: أكرر لك شكري يا ... مسيو ...

– أتسمحين أن أقدم إليك نفسي ... ولو أن التقدم من هذه النافذة العالية لا يسمَّى تقدمًا ... فالأصح أن أقول: أن ألقي إليك بنفسي.

فضحكت الفتاة وقالت: يسرني بالطبع ذلك؛ غير أني لا أضمن لك الوصول سالمًا إلى نافذتي، فألقِ باسمك وحده الآن، فهو يكفي.

فقال الفتى: اسمي «محسن».

فنظرت إليه نظرة استغراب وقالت: كالببغاء؟!

– نعم! ... لي الشرف أن يكون اسمي كاسم ببغائك.

فابتسمت ولم تجب. وظن «محسن» أنه تحدث إليها أكثر مما ينبغي، وخيِّل إليه أنه ربما أثقل عليها، وخشي أن يزيد في الكلام، فتبدر بادرة تمحو من شفتيها هذا الابتسام،

فحياها سريعًا بإشارة خفيفة، وابتعد عن النافذة مختفيًا لفوره عن أنظارها ... ثم جلس إلى مكتبه يتأمل الأمر ... عجبًا! ... ما معنى الجلوس؟ ... وفيمَ التأمل؟! ... لقد كانت أمامه، وكان بينهما حديث ... لماذا تركها؟ ... ألا يجدر به أن ينهض من مقعده ويعود إليها؟

ولكن نافذتها كانت قد أغلقت!

الفصل العاشر

شعر «محسن» حوله ببرد الوحدة ... وأراد أن يحادث أحدًا، أو يذهب لمقابلة أحد؛ غير أن الوحيد الذي يستطيع أن يفضي إليه بشيء هو «أندريه»! ... إنه ليس مجنونًا حتى يخبر «أندريه» اليوم بما حدث، فيسخر من خيبته، ويلقي على مسامعه مرة أخرى: «إن المرأة تُكسَب بالواقع لا بالخيال». آه ... الواقع! ... الواقع هو ... إنه هو الواقع في حب لا أمل فيه، ولا يجد إلى جانبه حتى من يعزيه! ... وتذكر «إيفانوفتش» ... نعم ... لعل ذلك الروسي المنفي مثله في مجاهل «العزلة»، يستطيع أن يسري عنه الساعة؛ بحديثه الغريب، واطلاعه، وتأملاته.

وكان المساء قد أقبل، وأدرك أن صاحبه لا بد قابع في حجرته الحقيرة، تحت سقف ذلك المنزل العتيق، فذهب إليه من فوره فوجده كما توقع أن يراه، جالسًا فوق صندوقه الخشبي، كما يجلس الثراة فوق «الشيزلونج»! ... وبين يديه كتاب ضخم ينهل من صفحاته؛ كما ينهل الألماني من كوب «جعة» ذي زبَد!

فما إن رفع رأسه، ورأى الفتى؛ حتى أشرقت أساريره المظلمة وانتعش قليلًا وجهه الذابل، وطرح الكتاب من يده، ونهض يهيئ للزائر مكانًا خليقًا بجلوسه، فمنعه «محسن» بإشارة سريعة، وبادر فقعد مثله على حافة الصندوق، وصمت قليلًا ... وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئًا في نفسه، ولم يتردد طويلًا؛ فقد انفجر على الرغم منه: يا مسيو إيفان! ... إني لست سعيدًا ... ولعلك أيضًا كذلك! ... إن سر تعاستنا هو أننا نعيش في هذه الحجرات المغلقة ... إننا نجهل الواقع وطرائقه المباشرة ... لا شيء يُكتَسب بالخيال في هذه الحياة!

فهز الروسي رأسه، وابتسم ابتسامة ساخرة وقال: من علمك هذا الكلام أيها الشرقي؟!

– هي البداهة، ولكن أعيننا هي التي لا ترى.

– لا ... لست أصدقك ... ذلك كلام لا ينبغي أن يقوله مثلك.

فمر طيف «أندريه» برأس «محسن» لكنه لم يقل شيئًا، ومضى إيفان يقول: الواقع والطرق العملية المباشرة؟! ... تلك بالضبط كل حياة الحيوان! ... الفاصل الوحيد بين الإنسان والحيوان هو «الخيال». إن اليوم الذي يستطيع فيه الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة، خارج الواقع والمادة ... اليوم الذي يلجأ فيه الحيون إلى طرق معنوية غير مباشرة للوصول إلى غاياته ... اليوم الذي يستطيع فيه الحيوان أن يمضي الليل «يحلم» في غابته المقمرة بدلًا من مطاردة الفريسة؛ هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية ... «الحلم» هو العالم العلوي الذي لا يدخله حيوان! ... «الخيال» هو تاج السيادة والسمو الذي تميَّز به الإنسان.

وسكت لحظة، فقال «محسن»: نعم ... ولكن «الواقع» ...

فانطلق الروسي: الواقع؟ ... الواقع ... إني لا أحترم الآن كثيرًا هذه الكلمة!

ومر طيف «أندريه» مرة أخرى برأس الفتى ... حقيقة أن صديقه الفرنسي هو الذي يذكر دائمًا هذه «الكلمة»؛ ولكن هذا الروسي الثائر، الواقف في منتصف الطريق بين الشرق والغرب! ... من يضمن لـ «محسن» أنه على حق في كل هذه التصورات؟ ... وبدا الشك على وجه الفتى ... وقرأ إيفان ما يجول بخاطره، فصاح به وهو يهزه من كتفيه: آه! ... «الخيال» ... هو ليل الحياة الجميل! ... هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل ... إن عالم «الواقع» لا يكفي وحده لحياة البشر! ... إنه أضيق من أن يتسع لحياة إنسانية كاملة! ... نعم ... مرة أخرى أقول لك إني شديد الإعجاب بأنبياء الشرق! ... إن المعجزة الحقيقية التي جاءوا بها: هي أنهم قدموا للناس عالمًا آخر عامرًا بسكان من ملائكة ذوات أجنحة جميلة بيضاء، زاخرًا بجنات فيها أنهار من التبر، وأشجار من الزمرد، راعدًا بنيران تتأجج بلهب؛ زرقاء كألسنة الأبالسة، الهائمة كالخفافيش.

في هذا «العالم» استطاعت البشرية أن تعيش حياة أغنى وأحفل من حياة الواقع! ... «الغرب» أيضًا حاول ذات يوم أن يخلق للناس مثل هذه العوالم؛ فظهرت فيه أنبياء الخيال، منشئو «اليوتوبيا»، فصنع «توماس مور»: «جزيرة الخيال»، و«كامبانيلا»: «مدينة الشمس»، و«موريللي»: «قانون الطبيعة» ... و«كابيه»: «رحلة إلى إيكاري»! ألعاب صبيانية؛ كتلك القصور والقلاع والجنان، التي يقيمها الأطفال على شاطئ البحر من الرمال! ... نعم خيال «مرتب بيد المنطق» مزين بنظرات العلم والفلسفة؛ كما تزين قصور الصبية بأوراق الحلوى الفضية الذهبية! ... لكن ... كم من البشر عاش في هذه «العوالم» التي صنعتها أيدي «العلماء» أنبياء الغرب؟! ... آه يا صديق، إن الغرب إنما عاش أجمل

حياته في ذلك الحلم السماوي، وذلك العالم العلوي الذي صنعه الشرق، وإن ضياع الغرب لم يبدأ إلا يوم أفاق من هذا الحلم، ونزل إلى عالم واقعه، يدب في هضابه المتحجرة ووديانه الجافة؛ كما تدب الحشرات.

وسكت الروسي لحظة، ثم عاد يقول: آه! ... السماء ... الجنة ... الجحيم! ... جرد عالمنا الأرضي من هذه الكلمات الثلاث التي بنيت في الشرق، تنهار في الحال أروع أعمالنا الفنية! ... كل ما استطعنا أن نخلق من جمال، إنما صُنع تحت نور شعاع من أشعة مملكة السماء، إني أعرف أن «الغرب» اليوم موضع تقدير وإكبار لعلمه واستكشافاته وإنتاجه واختراعاته! ... لكن ما قيمة هذا إلى جانب ذلك الاستكشاف الأعظم الذي ظهر في الشرق؟! ... إن الغرب يستكشف الأرض، والشرق يستكشف السماء! ... إن الذي استطاع أن يغمر البشرية كلها في حلم يدوم الأحقاب ... إن الذي استطاع أن يصنع مثل هذا «الحلم»؛ لهو حقيقة فوق مستوى البشر ... إنما نمجد ذلك الذي أوجد للإنسانية وأسكن الإنسانية «قارة جديدة» ... لكنا لا نرى مجد ذلك الذي أصعد الإنسانية، وأسكن الإنسانية: «السماء».

وتأمل «محسن» مليًّا قول الروسي وهو ينظر إلى وجهه المعذب الغاضب ... إنه يريد بحجته القوية أن يخلق إيمانًا للمحبة ... ثم لم يلبث أن راح في تأملاته وهو يقول في نفسه: إن الإيمان لا يُصنع، فهو قد يكون عند الإنسان، وقد لا يكون، وحينما نفقده لا يعود ثانية، أو قد يعود على صورته الأولى. وأنا أيضًا — تحت تأثير التعاليم الحديثة — أحس أن إيماني يضطرب كما تضطرب الوردة في مهب الريح.

نعم ... إن «محسن» ليشعر دائمًا أنه لا يسكن الأرض وحدها، إن حياته ممتدة أيضًا إلى السماء، وإن له أصدقاء وأحباء وحماة من القديسين أهل السماء ... إنه لن ينسى «السيدة زينب» الطاهرة وفضلها عليه في الملمات ... إن لها وجودًا حقيقيًّا في حياته! ... ما من مرة وقع في شدة، إلا وجد العزاء عند باب ضريحها ذي القضبان الذهبية. كل نجاح ظفر به في الحياة، هو دفعة من يدها، وكل عطف هو نظرة من عينيها، وكل ابتسامة من الحظ إنما هي ابتسامة من شفتيها! ... إنه يتخيل هيئتها ووجهها وملامحها! ... ويعتقد أنها في السماء بردائها الأبيض إنما تنظر إليه دائمًا وترعاه وتجعله من شأنها ... كأن هذا هو كل عملها.

لكن هنالك ساعات تتجهم له فيها الحياة، وتقسو عليه الظروف ويرى كأن «السيدة» قد نسيته، فيفطن ويذكر لوقته أنه في تلك الساعات وتلك الظروف، إنما هو الذي كان قد نسيها! ... نعم، إنها لا تنسى إلا من ينساها ... إننا — أهل الأرض — لنشغل أحيانًا

بما نصادف من فوز أو لذة أو متعة، فنقع في غشية من غرورنا ... ننسى معها أنفسنا وننسى السماء وأهلها ... عند ذلك تتركنا السماء في حقارتنا الأرضية ووحدتنا الباردة؛ فلا نستيقظ، ونرى ما صرنا إليه؛ إلا يوم نحتاج إلى حرارة العزاء وإلى العطف العلوي ... ذكر الفتى كل ذلك ... لقد كان مسجد «السيدة زينب» هو المكان الذي يقضي فيه نهاره أيام الدرس.

وكانت «السيدة» هي التي تقلب له صفحات الكتب، فيما خيِّل إليه، وكانت هي التي تصبره وتشد عزيمته، وهي التي كانت تجفف — بأناملها الرقيقة النقية — دموع حبه الأولى، وآلامه الأولى ... إنه لم يكن وحيدًا ... آه ... ما أقوى الإنسان الذي يعتقد أن له صديقًا ونصيرًا من أهل السماء! ... إنه كان يحملها نصيبها من التبعات ... إذا أخفق في خطوة فإن «السيدة» هي التي تخلت عنه، ولعلها أرادت هذا الإخفاق لحكمة لا يعلمها هو، وإذا وضع أمله في شيء اتجه إليها ضارعًا، أن تقف إلى جانبه، وتضم همسها إلى همسه، وصوتها إلى صوته في رجاء «الله»! ... إن هذا الإحساس جميل، وهذا الاعتقاد مريح! ... نعم، لو شعر «محسن» لحظة أنه في وحدة مطلقة، وأن السماء ليس لها وجود وأنها جرداء جدباء، غير عامرة بكائنات عليا تتصل حياته بحياتها، وأنه قد خُلِّي بينه وبين هذه الأرض وحدها إلى الأبد؛ لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يومًا واحدًا.

وعندئذٍ لمعت في رأس الفتى — كسنا البرق — صورة من حياته في الغرب. وللمرة الأولى تنبه إلى أمر مخيف: أنه لم يذكر «السيدة» في حرارة إلا الآن، بعد حديث «إيفان»! ... لقد مرت الأيام تلو الأيام، وهو يطالع أفكارًا مختلفة من الإغريق إلى «فولتير»، ويشاهد وقائع مضطربة، من أزمات القرن الماضي إلى انقلابات ما بعد الحرب! ... إنها الحمى تعصف بكل رأسه، وإن رأسه قد أصبح كبقية ما حوله من رءوس؛ فقاعة بين فقاقيع تملؤها الأفكار والحوادث وتتدافع في شبه إناء من خمر مغلي! ... ليس في حياته اليوم إذن مكان تهبط فيه «السيدة» بردائها الأبيض! ... وإن روح الحق ... قد غار؛ كما يغور النجم تحت شمس رأسه المحترق! ... شمس الحق المحترق الذي كان يتزعمه «فولتير» و«نيتشه»، وتحت ضوء هذه الشمس كان يرى بوضوح حقائق وأشياء جديدة ... ولكن وجوهًا جميلة كانت قد اختفت إلى الأبد.

آه ... إنه قد نسي حاميته التي في السماء! ... لو أنه أحس يدها على كتفه لما تعثر في خطاه أمام صورة «سوزي».

الفصل الحادي عشر

فتح «محسن» عينيه في الصباح، على شبه صوت ملائكي ينادي اسمه! … أتراه صوتًا آتيًا من السماء؟ … ولكن النداء تكرر واضحًا عذبًا، فوثب الفتى من فراشه وأصغى، ثم ابتسم: إنه آتٍ من النافذة السفلى عجبًا! … إنها «سوزي» تقول في نغمة موسيقية: «محسن»! … «محسن»!

فأسرع الفتى إلى النافذة كالمجنون: أتنادينني؟

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة، في شيء من الدهشة! … ورأى الفتى يدها على قفص الببغاء، تقدم إليه حب «القرطم»، فأدرك كل شيء؛ فتخاذل وارتبك: معذرة! … لقد نسيت … أني أشترك مع ببغائك في عين الاسم!

ورآها تبتسم، ورأى جمالها في ذلك الصباح الباكر أنضر من زهر «النرسيس» في أصص نافذتها، فتشجع وقال: نعم، إني أشترك مع هذا الببغاء في الاسم، ولكن لا أشترك معه في الحظ! … إن الفرق بيننا عظيم … إنه هو الذي يحظى بعنايتك، فتنادينه؛ وتناجينه؛ هذا الأحمق الذي لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة! … آه … لأولئك الاشتراكيين الذين يطلبون المساواة بين الناس في الحظ والنصيب، وأنا لا أستطيع أن أطمع في مساواتي في الحظ والنصيب بهذا الببغاء!

فضحكت الفتاة وقالت: أتراه مطمعًا عسيرًا؟

– أن أكون مثل هذا الببغاء … لست أطلب شيئًا إلا أن أكون مثله بالضبط.

– ولكنك لست في قفص.

– آه يا سيدتي! … إني في قفص، لا يراه كل الناس.

فنظرت إليه الفتاة مليًّا، ثم قالت باسمة: إذا كنت حقيقة كذلك؛ فأنت تستحق إذن شيئًا من ذلك العطف، الذي نمنحه الطيور السجينة في الأقفاص.

فأسرع الفتى يقول في تضرع: ثقي بأني أشد طيور الأرض استحقاقًا لعطفك!

فسألته الفتاة: وما نوع العطف الذي تريده مني؟ ... إني بالطبع لا أستطيع أن أقدم إليك قليلًا من «القرطم».

– إنك تستطيعين أن تتناولي معي قليلًا من «القرطم» ... هذا المساء في مطعم ... في أي مطعم يروقك.

فضحكت الفتاة ضحكة طويلة رقيقة: يا لك من مداعب ماهر!

– أنا يا سيدتي؟! ... لأول مرة أسمع من يصفني بالمهارة في شيء ... شكرًا لك.

لم يأتِ العصر، حتى كان «محسن» في منزل «أندريه» يقيم الدنيا ويقعدها، وقد أجلسه صديقه الفرنسي أمام المرآة، وجعل ينظم له شعره الأشعث، بينما أخذت «جرمين» تنظف معطفه الأسود بالبنزين، وتزيل عنه البقع ... ورأى الفتى اهتمام زميلَيه. فصاح يحمسهما: نعم ... اصنعا مني إنسانًا خليقًا بلقاء امرأة جميلة! ... فابتسمت «جرمين»، وقالت في سخرية غير واضحة: عرفت اسمها أخيرًا!

– «سوزي».

لفظها الفتى همسًا؛ كمن يرتل صلاة، ولكن «جرمين» سمعته فقالت باسمة: اسم جميل ... والموعد: أين؟ ... ومتى؟

– هذا المساء في محطة «المترو».

– وبعد؟

– سنتناول العشاء.

– في أي مطعم؟

– آه ... صدقت ... لست أدري ... يا للمصيبة! ... نسيت التحري عن المطعم الموافق ... أسرع! ... أسرع يا «أندريه» وخبرني عن رأيك في «هذا الموضوع الخطير!»

فصاح «أندريه» يائسًا: لا تهتز هكذا ... لقد فسد ترتيب شعرك ... وتبعثرت خصلاته من جديد ... آه ... لقد ضاع تعبي فيك سدًى!

– ولكن موضوع المطعم ذو أهمية كبرى.

– لا شيء أتفه من موضوع المطعم ... هذا الذي تصفه بالخطورة والأهمية الكبرى! ... كل شيء تتخيله أنت دائمًا هائلًا. لو كنت مكانك لأخذتها بكل بساطة، إلى مطعم «بوكاردي».

فضحكت «جرمين» ضحكة طويلة، فنظر إليها زوجها نظرة العجب: لماذا تضحكين؟!

– إنه المطعم الذي ذهبت بي إليه يوم لقائنا الأول، ومع ذلك ... لم تشأ يومئذٍ أن تطلب من أجلي «أوردفرفارييه».

– أما زلت تذكرين تلك الحماقات؟!

فصاح «محسن» وهو يلتفت إليهما: آه ... أحسنتما صنعًا بهذه الحماقات! ... سأطلب لها أنا هذا «الأوردفرفارييه».

فانتهره «أندريه»: قلت لك: لا تهتز! ... ولا تتحرك، حتى أفرغ وأطمئن على منظرك.

فالتفت الفتى إلى المرآة وهو يقول في قلق: وهل تعتقد أن الحال سيدعو إلى الاطمئنان؟!

– إن الأمر على كل حال لا ينبغي أن يدعو إلى اليأس.

فسكت «محسن» على مضض ... ثم عاد يقول سريعًا؛ كمن تذكر شيئًا مهمًّا: اسمع يا «أندريه»! ... في جيب معطفي قارورة «هوبيجان» من الصنف الغالي، اشتريتها عملًا بنصائحك الغالية ... أترى أن أتعطر منها قبل اللقاء؟! إنها كفيلة بأن ...

– المسألة ليست مسألة «هوبيجان».

– تريد أن تقول ...

فألقى «أندريه» نظرة أخيرة على شعر «محسن» ووجهه، ثم صاح بنبرة مرحة: أريد أن أقول إن لك الآن وجه عاشق يستطيع أن يذهب توًّا إلى موعده.

فنهض «محسن» واتجه إلى «جرمين» الباسمة: أهو يخدعني؟!

فقالت «جرمين» للفور وهي تقدم إليه المعطف: إنه يقول الحقيقة ... البس معطفك، وانطلق مطمئنًّا، أيها الفتى السعيد.

فارتدى «محسن» معطفه، ووقف أمام المرآة يتأمل هيئته طويلًا: المسألة مسألة ذوق! ... ما دام هذا المنظر يصلح في رأيكما للذهاب إلى المواعيد، فليس من الكياسة أن أطعن في ذوقكما! ... إلى الملتقى.

قالها وهو يتحرك إلى الباب، رافعًا قبعته السوداء في الهواء. وشيعه «أندريه» وزوجته إلى السلم، وهما يقولان باسمين:

– تشجع.

انتظر «محسن» الفتاة إلى أن جاءت، وذهبا إلى «بوكاردي» فتناولا العشاء، ثم خرجا إلى «الجران بولفار»، فشربا القهوة في أحد المشارب، ودقت الساعة العاشرة، فنهضت

«سوزي» طالبة العودة إلى مسكنها ... عند ذلك فقط أفاق الفتى وثاب إلى رشده ... وأحس فجأة الجوع، فهو لم يأكل شيئًا في المطعم، هو الذي كان قد دخله جائعًا، فخرج منه جائعًا دون أن يشعر! ... وهل كان في مقدوره، وهو إلى جانبها، أن يفكر في أكل أو شرب؟! ... إن المعدة لتنام عندما تستيقظ الروح! ... إنه لا يذكر شيئًا من أمره، لكنه يذكر كل شيء من أمرها هي، يذكر حركة يديها الرشيقتين وهي تتناول «الأوردفرفارييه»، ويذكر جمال فمها وهو يشرب «البرجوني»؛ ويسمع صدى ضحكاتها الرقيقة الخافتة، عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرنو إليها، أو الكلام الطويل في أشياء لم يعد يذكر ما هي.

ومرت الساعات، كأنها اختلاجة من أهدابها، وها هو ذا قد حان وقت الافتراق عنها! ... لا هذا مستحيل ... أبهذه السرعة قد وصلا إلى باب النزل؟ ... لماذا يقسو القدر على الناس هذه القسوة؟ ... إن الساعة لتطول كأنها الدهر عندما نقع في كرب أو بلاء، وإنها لتقصر كأنها ابتسامة عابرة عندما نجتاز النعيم.

ولم يرع الفتى إلا يدها تمتد إليه مودعة قبل أن تدخل النزل.

– لا، إن الوقت ما زال متسعًا، ونحن ما زلنا في أول الليل، وعندي كلام لم أفضِ بعد به إليك.

قالها «محسن» وهو محتفظ بيد «سوزي» في يده في حرص وخوف ... فقالت الفتاة: إني لا أستطيع طبعًا أن أستقبلك في حجرتي الساعة، ولا أن أصعد إلى حجرتك؛ فأفضِ إذن بما تريد ها هنا الآن، أو ... فلنسر قليلًا في هذا الشارع.

ومشيا جنبًا إلى جنب في ذلك الطريق الطويل ذي الأشجار الكبيرة، إلى أن بلغا حدود «بورت دي ليلاس»، وعادا من عين الطريق إلى أن اقتربا من ميدان «جامبتا» وفاجأتهما الأنوار فرجعا أدراجهما يحتميان في ظلال الأشجار، والفتى لا ينبس، وهي صامتة صمت من ينتظر منه الإفضاء بشيء ... وكأنما عيل صبرها فقالت في صوت خافت رقيق: ماذا كنت تريد أن تقول لي؟

– كل شيء.

– إني مصغية إليك.

فأراد «محسن» أن يتكلم، لكن الألفاظ هربت من رأسه؛ كما تهرب العصافير من الأقفاص ... إن لديه إحساسًا عاريًا، ولا ينبغي أن يظهره عاريًا أمام سيدة! ... لا بد له من ثوب أنيق؛ فالمرأة يسرها دائمًا الثوب الأنيق، وإن كان على جسم نحيل من عاطفة نحيلة! ... إن هذه الفتاة لا شك تدرك ما عنده، وهي لا تكتفي بذلك، وهي إنما تدمي

قدميها، سيرًا في هذا الليل؛ لتسمع ألفاظًا يلذ لها سماعها في ذاتها ... فماذا تراها تفعل بمشاعر قوية في أطمار بالية؟

وخشي «محسن» العاقبة، وتغلب عليه الوهم، فقال كالهامس: لا ... لا أستطيع الآن.

فقالت هي أيضًا كالهامسة: لماذا؟!

– غدًا إذا شئت.

– بل الآن!

فتردد الفتى لحظة، ثم تمالك وانطلق انطلاق الهارب الخائف الذي يريد أن يقنع عقله بالشجاعة والثبات، قائلًا كالمخاطب لنفسه: لست جديرًا بأن أقول لك ما أريد الآن، دعيني أبعث إليك غدًا برسول عني يحسن الكلام.

– من هو؟

– الشاعر الإغريقي القديم «أنا كريون»، سأحضره معي عصر الغد عند محطة «المترو»، وسيفضي هو إليك بكل شيء.

الفصل الثاني عشر

كانت كل حياة «محسن» في الأربع والعشرين ساعة التالية: ترقب الموعد، وإعداد نفسه، وترويض لسانه، وضبط أعصابه لمواجهة الموقف! … وجاء العصر فارتدى ثيابه في عناية، وهمَّ بالخروج، ولكن الباب طُرق عليه، وظهرت خادم النزل تقدم إليه رسالة وردت بـ «البريد السريع»، ففض الفتى غلافها بيد ترتجف، وقرأ في لمحة واحدة:

صديقي

أرجو منك ألا تنتظرني هذا المساء، في المكان المعروف؛ فإني سأبقى في العمل إلى ساعة متأخرة، لم تكن في الحساب! … إذا كنت مع ذلك في مسكنك، فإني أمر بك عند منتصف العاشرة، لأقول لك «بونسوار».

سوزي

عاد الدم يجري إلى وجه الفتى وهدأ تنفسه، وانتظمت دقات قلبه، ثم خلع سترته، وجلس إلى مكتبه يفكر باسمًا، ويتلو خطابها على مهل … ووقف عند كلمة «صديقي»، ثم عند قولها: «فإني أمر بك» فأحس أطراف أجنحة السعادة تمر به، ورفع عينيه إلى ما حوله؛ إنها ستأتي هنا بعد قليل … ما كل هذه الكتب المكدسة في غير ترتيب؟ … ينبغي أن يقر في الحال النظام محل الفوضى، وقام من فوره إلى حجرته، يهيئها للاستقبال العظيم.

وجاء الليل وانتشر الظلام في سماء شبه صافية، تؤذن بانتهاء الشتاء، ووقف «محسن» قرب النافذة ينظر إلى النجوم المتألقة بأشعتها الزرقاء، وسمعه مرهف إلى الباب في قلق

ونفاد صبر، وخيِّل إليه مرات أنه يسمع نقرًا خفيفًا على بابه، فكان يسرع إلى فتحه فلا يجد أحدًا! ... لقد اختلط في رأسه الوهم بالحقيقة من طول التأمل والانتظار. وسمع أخيرًا طرقة هزت قلبه قبل أن تبلغ رأسه، فأيقن أنها هي ... فأصلح من شأنه على عجل، وفتح الباب ... نعم ... إنها هي هذه المرة ... بقبعتها ومعطفها وبقية ثياب الخروج ودخلت مبتسمة كأنها زنبقة: لقد جئت توًّا كما ترى، قبل أن أمر بحجرتي ... آه! ... أهذه حجرتك؟ ... إنها جميلة.

– الآن فقط، أرى أنها جميلة.

– ما كل هذه الكتب؟ ... إنك تقرأ كثيرًا ... أتلذ لك بهذا المقدار الحياة في ...

– وأنت؟

– إني أفضل الحياة في ... الحياة!

– أنت أيضًا؟!

– لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

– أصبت ... أرى الآن أني على خطأ ... ما الذي يعنيني من أمر حياتك أنت؟ ... ما أنت إلا «حلم» يحيا فيه ... الآخرون.

– ومن هم الآخرون؟

قالتها في ابتسامة ذات معنًى، وأناملها تعبث بصفحات كتاب فوق الكتب ... وأرخى الفتى بصره، ولم يجرؤ على المضي في الكلام.

ونظرت إليه لحظة، ثم قالت في صوت خافت رقيق: إني مصغية إليك.

فتذكر «محسن» البارحة، وفطن إلى مرادها ... فرفع رأسه، وقال: أتسمحين لي أن أقدم إليك من يستطيع أن يتكلم باسمي؟

– ذلك الشاعر الإغريقي الذي قلت لي عنه؟ ... ما اسمه؟

– «أناكريون».

– نعم ... نعم ... أين هو؟

فأشار بأصبعه إلى الكتاب الذي تعبث به: إنه بين يديك.

فضحكت ضحكة ساخرة، ورفعت الكتاب تنظر فيه، وبادر «محسن» فدلَّها على إحدى صفحاته، وقال لها: اقرئي هذا.

فقرأت:

«إني أريد ... أريد أن أحب.

ولقد زين لي «الحب» أن أحب،
فأبيت من جهلي أن أصغي إليه،
فقبض من فوره على قوس من ذهب،
ودعاني إلى القتال ... فلبست له الحديد،
وأمسكت بالرمح والدرع،
ونهضت؛ كأني «أخيل»
أنازل «الحب»، فسدد إليَّ سهامًا
حدت عنها فطاشت، ونفدت سهامه.
فتقدم إليَّ يتقد غضبًا
وهجم عليَّ فاخترق جسمي
ونفذ إلى قلبي! ... فانهزمت،
يا لها من حماقة أن أتقي بدروع!
أي سلاح خارجي ينتصر على «الحب»
إذا كانت المعركة قائمة داخل نفسي؟!»

وفرغت الفتاة من القراءة، ولكن بصرها بقي جامدًا على السطور، وكان الفتى قد دنا منها، يقرأ معها من صفحة واحدة، فأحس شعرها المعطر قد انتثرت خصلاته الذهبية على وجهه؛ كما تنتثر أشعة القمر على الكائنات، ولم يذكر الفتى شيئًا عندئذٍ، ولم يفطن إلا إلى وجه «سوزي» الناعم الحار، قد لاصق وجهه؛ وكأنها تقبله! ... نعم، إنها بين ذراعيه تقبله، هذا لا ريب فيه الآن، وهي حقيقة واقعة الآن، لا وهم فيها ولا غموض، ولم يدرِ الفتى كيف حدث ذلك، ولا ما يصنع بعد ذلك!

آه لأولئك الخياليين، عندما يعطون فجأة: «الحقيقة» ... نعم، فجأة؛ أي قبل أن يترك لهم زمن، يسبغون فيه على تلك «الحقيقة» أردية الخيال الموشاة! ... إنهم يتلقون جسمًا غريبًا ومادة عارية، لا يعرفون ماذا يراد بها ... إن «الحقيقة» عملة لا تجوز في مملكة «الأحلام».

لم ينم «محسن» تلك الليلة؛ فقد كان وقع ما حدث ذا دوي في نفسه ... وجاء الصباح فأسرع إلى صديقه «أندريه» يقص عليه كل شيء.

وابتسم الفرنسي لرواية الفتى، وقال له: أرأيت؟ ... إنها فتاة ككل الفتيات! ... وعاملة كآلاف العاملات ... تلك التي أسكنتها قصرًا من قصور ألف ليلة وليلة، وجعلتها تنظر

من عليائها، إلى مواكب الناس المتدفقة تحت شباكها. آه أيها الصديق! ... اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطرًا مما كنت تتصور، وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة، لا تحتاج إلى كل هذا الوقت، إلى كل هذه الخيالات والتأملات؟!

فأحس الفتى إحساس من يهوي إلى الأرض؛ وكأن قيم الأشياء في نظره قد تضاءلت، وكأن الحياة نفسها قد تجردت من غطائها؛ فبدت عارية كتمثال مصبوب من السخف! ... وشعر «محسن» بفراغ من مادة نفسه، لا يدري بعد اليوم بماذا يملؤه.

وترك الفتى صاحبه، وانصرف مطرقًا؛ دون أن ينبس بحرف.

الفصل الثالث عشر

... ولكن للأرض لذاتها وآلامها! ... لقد هبط «آدم» الأرض فغمره نعيم وجحيم، من نوع آخر ومادة أخرى ... وهكذا كان «محسن» يستيقظ بعدئذٍ كلَّ صباح على قبلات ملتهبة، فيفتح عينيه، فإذا موجة من ذهب ذلك الشعر الجميل قد غطت وجهه ... وصوت عذب يقول له: أورفوار!

ثم خطى قدمين صغيرتين تخطو على خشب الحجرة، وتتجه إلى الباب، في شبه حركة راقصة، ثم صوت الباب يُفتَح ويُغلَق ... ثم لا شيء ... إنها ذاهبة إلى عملها!

لم يكن لـ «محسن» بعد ذلك من عمل إلا الاستمرار في النوم إلى الضحى؛ فلم يعد به حاجة إلى التبكير، ولم يعد صوت غنائها هو الذي يوقظه، إلى أن يكل من النوم، فينهض في تراخٍ، ويرتدي ثيابه على مهل، ثم يخرج إلى مطعم «الأوديون» بجوار المسرح ينتظرها فيه لتناول الغداء، ثم يبقى معها حتى موعد فتح شباك التذاكر في منتصف الثالثة، فيتركها ليعود إلى ساعة العشاء في ذلك المطعم، ثم يذهبان وقد فرغت من عملها إلى «سينما» الحي، فيجلسان متلاصقين، يتبادلان القبلات في الظلام؛ كما يفعل من بجوارهم من عمال وعاملات! ... وتذكر «محسن» ذات مرة ملاحظته الأولى، يوم رأى فتًى فرنسيًّا يعانق فتاة في الطريق. لقد حسب يومئذٍ أن في ذلك امتهانًا لقداسة الحب.

أتراه يقول ذلك الساعة؟ ... لا، ما الذي تغير؟ ... لا شيء ... إنه يحب دائمًا، ولكن طعم الحب هو الذي تغير ... التفاحة هي التفاحة؛ ولكن التفاحة أرض جديدة! ... تفاحة «الأرض» ... حلوة لكن داخلها الدود! ... ولم يكن «محسن» يطيق إبطاء «سوزي» خمس دقائق عن موعدها، ولم يكن يحتمل رؤيتها تبتسم لأحد معارفها، وهي تحني رأسها بالتحية، ولم يعد يرى صورتها في أحلامه ممتزجة بأنغام «الأنترمتزو» و«رقصة الفرايدول» ولكنه يراها في نومه، تعانق رئيسها «هنري» الذي عرف منها بعض أخباره،

أو يراها تقبل شابًّا زنجيًّا تلك القبلات الملتهبة؛ فينهض منزعجًا مضطربًا، يود أن يمزق جسدها بأسنانه.

وجلس «محسن» ينتظرها ذات مساء في ذلك المطعم، الذي يؤمه ممثلو «الأوديون» وفنانوه، ومضت ساعة مجيئها ولم تظهر بالباب، فاختفى الابتسام من وجه الفتى، وذهبت رغبته في الطعام، وود لو ينهض ويخرج ويركض هاربًا؛ حتى تأتي ولا تجده. وخامرته الشكوك، ولم يستطع أن يقبل في أمرها عذرًا، وحكم عليها في نفسه حكمًا قاسيًا، وتمنى لو يحطم شيئًا؛ حقيبة يدها، أو طبقًا من هذه الأطباق ... ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة، وبدت «سوزي» مسرعة إليه، وكأنها قرأت في وجهه كل ما في نفسه، فبادرت تقول: أبطأت عليك قليلًا؛ أردت أن أحصل على تذكرة دعوة للحفلة الأولى من الرواية الجديدة ... لأقدمها إليك.

وأخرجت من حقيبة يدها رقعة من «الكرتون» أعطته إياها، فأخذها ... ولكن الهدوء لم يستقر في نفسه؛ فقال لها في صوت حار: إني أحبك إلى حد مخيف ... إلى حد الرغبة في أن أنهال عليك ضربًا.

فقالت مبتسمة وهي تفحص قائمة الطعام بعينيها: هذا مخيف حقًّا! ... ماذا طلبت من الأكل؟

– إني أحبك ... أحبك كثيرًا!

قالها كالمخاطب نفسه، وهو يفحص بعينيه خصلات شعرها المتهدل تحت القبعة، وجاء خادم المحل يتلقى الأمر، فطلبت الفتاة ما اختارت من بين الألوان، والتفتت إلى الفتى الساهم؛ كما التفتت إلى الخادم وصاحت به: عجبًا! ... ماذا تريد أن تأكل؟

فرفع الفتى بصره؛ كمن ثاب إلى رشده، وتناول بطاقة الطعام وهو يقول: ماذا آكل؟ ... لست أدري! ... أشيري عليَّ أنت ... فإني لا أستطيع أن أعصي لك أمرًا.

فطلبت له مثل ما طلبت لنفسها، وانصرف الخادم، والتفتت هي إليه: ماذا بك؟

– لا شيء! ... ما أشد الحرارة داخل هذا المكان!

إني أحس العطش.

وسكب قليلًا من الماء في كوبه، وجرع منه جرعتين، وقالت «سوزي» وهي تبحث عن كوبها الذي لم يوضع بعد على المائدة: إني أيضًا أحس العطش.

وتناولت كوب «محسن»، وشربت من الموضع الذي شرب منه الفتى، وهي تنظر إليه باسمة، ورأى الفتى ذلك منها، فقال في صوت خافت ناري متقطع؛ كأنه حميم متطاير: بي رغبة هائلة في أن أقبلك الآن.

فضحكت ضحكة رقيقة كلها دلال، ونظر خلسة إلى من حوله في المحل، ثم مضى يقول: لا أستطيع؛ فلأقنع الآن مرغمًا بالشرب من الموضع الذي مس شفتيك … كما فعلت معي.

ورفع الكوب إلى شفتيه.

الفصل الرابع عشر

عاش «محسن» حياة «الواقع»؛ يأكل ويشرب وينام في «الحقيقة»، ولم يفطن إلى كتبه المغلقة منذ تلك الليلة، ولم يرَ فوق أكدائها غير بضعة دبابيس للسيدت، وعلبة «بودرة» قد تناثر منها مسحوقها الخمري النحاسي؛ في لون الأجسام الرخامية التي عانقتها الشمس على شاطئ البحر ... ذلك اللون المحبوب من الباريسيات في ذلك الوقت! ... نعم، لم يعد البياض الناصع؛ لون السحب، هو المثل الأعلى! ... إنما هي الحمرة الحارة، لون الصلصال المحترق.

وتلاقى «محسن» و«سوزي» على مائدة المطعم هذا المساء مبكرين؛ فالليلة الحفلة الأولى للرواية الجديدة، وقد جاء للتمثيل فيها الممثل الشهير «دي فيرودي».

وكان الفتى باسم الثغر، منشرح الصدر، يلتهم طبق «البفتيك» في نشاط ظاهر، ولحظته الفتاة قليلًا وابتسمت قائلة: أرى أن لك اليوم شهية للطعام.

– إن البفتيك لذيذ، ولكني — مع ذلك — مسرور لسبب آخر.

– ما هو؟

– إني مدعو إلى الحفلة الأولى في ثاني مسرح بباريس! ... إنها المرة الأولى التي يقع لي فيها ذلك ... وهذا بفضلك ... إني فخور بك!

– هذا شيء لا يدعو إلى الفخر.

– لا ... إنك ...

– لا تقل شيئًا! ... كل بغير أن تتكلم، يا ببغائي الكبير.

– آه! ... ببغاؤك الكبير! ... كم أغبط ذلك الآخر الصغير! ... إنه في قفصه، فوق نافذتك، أكثر حرية مني بين يديك.

– قلت لك لا تتكلم حتى تفرغ من طبقك ... إني أعلم أن لا شيء يذهب شهيتك دائمًا مثل الكلام على المائدة! ... استمع أنت، وأنا أتكلم.

– نعم تكلمي أنت.

وعكف «محسن» على طعامه، وأرادت «سوزي» أن تفتح فمها بالحديث، ولكن الباب فُتح، وظهر شيخان جليلان ابتسما للفتاة في تحية من رأسيهما، وجلسا إلى إحدى الموائد، وقد هرع إليهما مدير المحل وغلمانه، ورأت الفتاة علامة الاستفهام على وجه الفتى؛ فأسرعت تقول له هامسة: أتدري من هذا الشيخ القصير؟

– من هو؟

– مسيو «دي فيرودي» نفسه.

فرفع «محسن» رأسه ينظر إليه في عجب وإعجاب ... ثم قال هامسًا: هذا «دي فيرودي»؟!

– إنه مثال الوداعة وطيب الخلق.

– ومن هذا الشيخ الضخم الذي معه؟

– عجبًا، ألم ترَه من قبل؟ ... هذا مسيو «سيلفان».

– «سيلفان» العظيم؟!

ونظرت «سوزي» إلى طبق «محسن»، ثم قالت في الحال بلهجة الآمر: والآن، الكلام ممنوع يا ببغائي العزيز.

– نعم! ... تكلمي أنت.

وعاد الفتى إلى الأكل، وجعلت «سوزي» تتحدث: أتعرف أن زوجة مسيو «سيلفان» تجيد طهي «البويابيس»؟ ... وأن مسيو «هريو» وزير المعارف وهو الصديق الحميم للممثل «سيلفان» لا يستمرئ أكل «البويابيس» إلا من صنع «مدام سيلفان» العجوز؟! ... اسمع هذا: في الشهر الماضي ...

ولم تتم؛ فقد فُتح الباب، وظهر شاب فرنسي جميل الطلة، ما كاد يقع بصره على «سوزي» إلى جانب «محسن» حتى تغير وجهه، وما كادت الفتاة تراه على هذه الحال حتى تغير وجهها، وانقلب كل شيء فيها رأسًا على عقب. وشعر «محسن» في تلك اللحظة أن مصيبة نزلت به، لا يدري بعد ما هي. وجلس ذلك الشاب إلى خوان قريب، ووجهه في وجه الفتاة ... لكنه أطرق وجعل كأنه لا ينظر إليها، ووضع عينيه في «قائمة» الطعام.

وأطرقت «سوزي» كذلك ... وكانت قد فرغت من الأكل، فلم تدرِ ماذا تصنع، وقلق «محسن» فسألها: ماذا دهاك؟

فلم تجبه، ولم تلتفت إليه، وأومأت إلى غلام المطعم فاقترب منها فقالت له: مجلة «الإلستراسيون» من فضلك.

فأسرع الخادم وأحضر إليها الصحيفة المصورة التي طلبتها، فتناولتها ونشرتها بين يديها، وجعلت تتأمل صورها في صمت كأنها غير حافلة بوجود «محسن» إلى جوارها. وأحس الفتى منها ذلك، فغلى الدم في رأسه، وقال لها بصوت هامس يقطر مرارة: أهذا هو صاحبك «هنري»؟

فلم تجب، فمضى يقول: لماذا تسكتين الآن عن الحديث معي؟

فلم تجب، فقال: أريد أن أعرف معنى اهتمامك الآن فجأة بهذه المجلة وهذه الصور؟!

فلم تجب، فقال: تريدين أن تفهميه في بساطة أني إنسان لا خطر له عندك، وأنك تتناولين معي العشاء عن غير رغبة أو سرور؟!

فلم تجب، فقال ذاهب الصبر: وبعد؟ … ألا تقولين كلمة؟ … لقد قضي الأمر إذن، ولم أعد ببغاءك العزيز؟ … وأنت ما عدت تحرصين على شهيتي للطعام أو الشراب، والإقبال عليَّ تحدثينني كما كنت الآن تفعلين؟!

فلم تجب، ولم ترفع رأسها، ومضت تقلب الصور، فقال في غضب مكتوم ساخر: ثقي بأن خليلك قد اقتنع الآن كل الاقتناع أنك تفضلين قتل الوقت بمطالعة المجلة، على الحديث مع مثلي! … نعم، لقد فهم الآن أني لا أساوي شيئًا في نظرك!

فلم تقل شيئًا، فقال: لعلك تريدين أن يفهم أكثر من ذلك؛ فيرى أني لست أكثر من معجب مفتون، من أولئك المغفلين الأجانب، الذين ينفقون على الغانيات ويتقبلون في رضا إعراضهن وإهمالهن وازدراءهن!

فلم تجب ولم تتحرك، فقال: إنك تحملينني من الإذلال ما لا أطيق! … نعم، ينبغي أن أقول لك: إن ما تصنعين بي الآن لكثير. وليس الذي يعنيني من الأمر هذا الحب الهائل، الذي ظهر فجأة الساعة فسحرك، وجعل منك تمثالًا من الشمع، فأنت حرة في شئون عواطفك، ولا يدفعني إلى هذا الكلام ألم أو غيرة … حقيقة أن حالي الآن لا تدعو إلى الاغتباط والارتياح، ولكني أنا أيضًا حرٌّ في شئون عواطفي! … ما أسألك عنه الساعة هو أن تفكري قليلًا في أمر موقفي، وأن تنقذي على الأقل المظاهر، وأن تعامليني في شيء من البر والكرم، وألا تجعليني ذليلًا أمام حبيبك أو خليلك؛ إلا إذا كنت تقصدين ذلك؛ وكان هذا هو السبيل الذي ترتفعين به في نظره، وتصلين به إلى عنايته وحسن التفاته! … وبعد؟ … ألا تقولين شيئًا؟ … أمصرة أنت على هذا الصمت المهين؟ … إذن … ليس في وسعي الآن مع الأسف العميق إلا أن …

وأومأ إلى الخادم فجأة ودفع إليه سريعًا قيمة «الحساب» كله، ثم نهض قائلًا: وداعًا ... سيدتي!

ومضى على عجل دون أن ينظر إليها، وخرج من المطعم خروج آدم من الجنة!

الفصل الخامس عشر

قبع «محسن» في حجرته، مهيض النفس، جريح القلب، وجعل ينظر إلى كل شيء حوله؛ كمن ينظر إلى شيء غريب! ... نعم، لقد فقد المسكن معناه، وهذه النافذة، ما عادت تشرف الآن على ذلك الهناء ... وإن صوت الغناء العذب المتصاعد من النافذة السفلى، ليس الآن غير طعنة طويلة، تنفذ إلى سويداء فؤاده! ... فهي إنما تغني دائمًا للآخر ... إنه ما زال يسمع في الصباح عين الأغنية من «كارمن»:

«الحب طفل بوهيمي لا يعرف أبدًا قانونًا.»

هذا صحيح! ... وهو الآن يلقى جزاء اللعب مع ذلك الطفل البوهيمي! ... إنه لم يعد يسمع حتى صوت ندائها للببغاء الصغير! ... إن اسم «محسن» قد اختفى من فمها على الإطلاق، وخطر للفتى أن ينظر إلى قفص الببغاء فوق نافذتها، فأطل من نافذته فأخذه الروع! ... لم يجد قفصًا ولا ببغاء، أين العصفور؟ ... أين «محسن» الآخر؟ ... لا يدري مصيره هو أيضًا، لعلها قذفت به كذلك إلى عرض الطريق، وحزن الفتى لتلك الفكرة!

ومرت ساعات ... ومرت أيام ... و«محسن» يعيش في أمله: كما يعيش الجريح في دمه! ... وخطرت له خواطر، وطافت به هواجس! ... وانتهى من تأملاته الطويلة إلى عزم: أن يراها ويحادثها مرة أخيرة ... آه للمحبين المدحورين! ... كم يعلقون الآمال على ما يسمونه «المحادثة الأخيرة»؟! ... إنهم لا يريدون أن يفهموا أن الشرح والمنطق والتفسير والإيضاح، وكل وسائل الفكر والعقل؛ أشياء لا تفيد في مسائل القلب، وأن النعيم والجحيم إنما تفتح أبوابها، وتوصد على شبه ألفاظ سحرية، لا معنى لها: «افتح يا سمسم! ... أغلق يا سمسم!»

وسمع الفتى ذات عصر صوت غنائها، وعلم أنها في حجرتها، فتجلَّد وذهب إلى بابها، وطرق طرقة خفيفة خجلة ... ففتحت ... وما إن رأته حتى عادت، فأغلقت في وجهه الباب في هدوء، بغير أن تلفظ كلمة.

فرجع الفتى أدراجه أحمر الوجه؛ من أثر تلك الصفعة، وجلس إلى مكتبه، وأخفى رأسه بين كفيه.

ومرت عليه ساعات أخرى، وفكر مرة أخرى: لو أنه استطاع فقط أن يكلمها ويُفهمها.

وحاول في اليوم التالي أن يعيد الكرة، فطرق بابها مرة ومرة ... فلم تفتح له! ... وتوسل إليها أخيرًا، من خلف الباب أن تصغي إليه خمس دقائق، يخرج بعدها ولا يعود، بل إنه يعدها بترك النزل كله، والمضي بأمتعته إلى حيث لا تعلم، لكنه لم يتلقَّ جوابًا ... فهي سماءٌ صمَّاء، لا يصل إليها دعاء، وهو عبد طريح على أرض الشقاء، قد ارتكب خطيئة لا غفران لها، ولا يدري ما هي!

وحدثته نفسه أحيانًا بالثورة، وود لو تنقلب كل ذرة من ذرات حبه إلى قنابل، تتساقط محطمة ذلك الشيء الجميل، الذي كان يسميه «سوزي»! ... ولكن، رباعية من رباعيات الخيام، وقعت فجأة تحت بصره، وهو يقلب الكتاب بين يديه، لاهيًا حالمًا:

«إذا أردت أن تسلك
طريق السلام الدائم
فابتسم للقدر إذا بطش بك،
ولا تبطش بأحد.»

نعم، فليبسم، على الرغم من كل شيء! ... حسبه أن قد ظفر بلحظة من هذا النعيم الذي كان يجهله! ... نعم، إن تلك المرأة استطاعت أن تكشف له عن جانب من جوانب الجنة المجهولة في كيانه! ... فليكن من أمرها ما يكون، فهو الآن يعلم بفضلها ما لم يعلم! ... «جنة الأرض» هي التي أعطته مفاتيحها، وأذاقته رحيقها، ووضعت شفتَيها إلى جوار شفتَيه على حافة ذلك الكوب البلوري، من الكوثر الأرضي.

لكنها قد طردته؟ ... فما مصيره؟ ... أيعود إلى السماء؟!

وترك مجلسه، واقترب من نافذته، وأطل منها على نافذتها السفلى، فوجدها موصدة، ولكن الضوء ظاهر من زجاجها؛ فهي في حجرتها ذلك المساء ... لكن، كيف السبيل إليها؟

... إن بابها المغلق في وجهه لا تخترقه صلاة، ولا يفتحه بخور! ... إنها الآن في حجرتها كإله في سمائه، وقد احتجب بالسحب، واعتصم بالشهب؛ فلا يدري أحد كيف يدنو منه! ... وتأمل «محسن» السماء طويلًا من نافذة حجرته العالية وقال متنهدًا:

«آه! ... أيتها السماء السابعة!
إني أراك وأحادثك!
هنا من الطابق الخامس!
أما فاتنتي، التي كانت دانية مني ...
فهي نائية ... نائية الآن عني!
آه! ... لو أنها كانت فقط
في السماء السابعة!
لكنها ... في الطابق الرابع!»

الفصل السادس عشر

سيدتي

لم يكن بد من أن أكتب إليك هذا الخطاب ... اطمئني، لن أطلب فيه شيئًا، ولن أرجو منه شيئًا ... إني لست أخدع نفسي؛ ولست أجهل حقيقة الأمر! ... إني منذ دخل المطعم مسيو «هنري»، ولحظت كيف تغير وجهك، فهمت في الحال أن ساعاتي عندك أمست معدودة، ولعل كلماتي التي وجهتها إليك ذلك المساء لم تكن إلا صيحات التشبث بالحياة؛ فإن كنت قد جرت في القول، وانطلقت بكلام غاضب، فإني أطمع دائمًا في أنك تصفحين؛ كما صفحَت ولا ريب، الملكة الجميلة «سميراميس» عن زلات لسان «أسيرها» يوم دعته إلى ليلة من ليالي النعيم، مهدت فيها الفرش وأقيمت الموائد، وقدمت «أطباق البفتيك»، وتلاقت الشفاه على الأكواب، وفاح عطر الـ «هوبيجان» من أعطاف الثياب، وانتثرت خصلات الذهب على الوجوه، إلى أن لاح الصباح؛ فتغير وجه الملكة الجميل، ووضع الأسير في الأغلال، ومشى به إلى الموت، وهو ذاهل ما زالت في رأسه بقية من نشوة الليل.

إن الذي كان يُلطِّف من غير شك، وقع الأمر على ذلك الأسير أنه كان يعلم أن الملكة تلهو، وأن الجلاد سيستقبله على باب مخدعها في الصباح؛ فهو لم يغتر، ولم يغب عن عينه السكرى سيف المنية، يبرق خلف الكئوس.

ولكن ملكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن غير ذلك؛ كل شيء عندهن مستتر مقنَّع، «فهي» تضع على وجهها ذلك القناع الحريري الأسود، الذي يلبس في «المساخر»، وتجر خلفها أسيرها وهو مسحور بجمال عينيها الفاروزيتين، تزهران في السواد؛ كأنهما نجمان بازغان في صدر الليل! ... وتسير به إلى خلوة يقرآن فيها صفحات الحب منفردين ويلتصق فيها الوجه الحار على الوجه المورد، ثم تجذبه إلى ضجيج الناس والطرقات،

وقد خيِّل إليه في هذا الحلم أنهما في «فينسيا» أيام «الكرنفال»؛ وكأن كل شيء حولهما راقص، وكأن على رأسيهما تلك التيجان من «الكرتون» الفضي الذهبي ... وكأن حبال الورق «السربنتان» الخضراء الحمراء تشد جسميهما؛ أحدهما إلى الآخر في رباط، وخيِّل إلى الأسير، وهو غارق في أحلامه أنه وثيق لن ينقطع! ... ولبثنا هكذا مرتبطين بتلك «الحبال» يذهبان بها في كل مكان؛ في المطاعم: حيث «البورجوني» المعتق، وفي السينيما؛ حيث القبلات في الظلام! ... عجبًا! ... أكل هذا لم يكن حبًّا؟! ... من قال ذلك؟ ... ومن أذن للأسير في أن يشك؟ ... حقيقة إنه لم يرَ كل ما خفي من وجه «الجميلة» فهي لم تخلع بعد قناعها! ... لكن ماذا يهم؟ إنه يؤمن بصدق هاتين الفاروزتين اللامعتين.

وجاء الصباح؛ وطلعت الشمس، وغارت النجوم، وأفاق ذلك الحالم؛ فلم يجد حوله أحدًا، غير كنَّاسي الطرق يكنسون بقايا الكئوس المحطمة والتيجان الممزقة، وأكوام «حبال» الورق ذي الألوان ... التي كان يحسبها قديرة على أن تربط الأجسام طول الأعوام ... أين ذهبت «الملكة»؟ ... لا يدري! ... كل ما بقي منها هو قناعها الحريري الأسود ملقًى تحت أقدام المائدة.

آه يا سيدتي! ... لماذا فعلت ذلك؟ ... ولماذا لم تخبريني «بشروط» اللعب من أول الأمر؟ ... لو أني عرفت هذا الوضع للأشياء، لهان كل هذا، ولكن المروع في الأمر أني أخذت كل شيء على سبيل الجد!

إن من السهل على عقليتي الشرقية البسيطة، أن تعيش في الأحلام كما تعيش في الحقائق، وإنها لتأبى أن تؤمن بانهيار الأشياء بمثل هذه السرعة.

لقد كنت أنت، من غير شك، تعلمين أن هذا كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلًا. ويوم كنت أنا أعتقد أني أحيا في جنة الأرض الجميلة، كنت تعرفين أني إنما أحيا في مهزلة مبتذلة سخيفة.

لقد هبطت الأرض، صافي النفس، نقي القلب؛ كما هبطها ذلك الإله الهندي «ماهادوفا» الذي تروي خبره الأساطير الهندية؛ لقد نزل الأرض؛ كرجل من الرجال، يرقب أعمال البشر بين البشر، فقابل فتاة جميلة حياها وسألها عن أمرها، فقالت إنها راقصة من راقصات المعابد، ورفعت «صفاقاتها» (صنجاتها) بين أصابعها، ورقصت له ألف رقصة ورقصة ... ثم ركعت أمامه وقدمت له أزهارًا، وقادته إلى مسكنها! ... وهناك جعلت تُعنى به، جاهلة حقيقة أمره، وتكشف له عن قلب نادر نبيل، على الرغم مما يحيط به من أدران. وعاشا في سعادة الأرض، الزمن الذي تسمح به سعادة الأرض! ... وذات صباح استيقظت الفتاة فوجدت حبيبها إلى جانبها ميتًا، فبكته بكاءً مرًّا، وجاء الناس والكهنة،

وأحرقوه؛ كما يفعل الهنود بموتاهم، فأسرعت الفتاة، وألقت بنفسها إلى جانبه في اللهب، فأصعدها معه إلى السماء.

تلك قصة الفتاة الهندية، أما الفتاة الأوروبية اليوم، فإنها تفعل غير ذلك! … إنها أعقل من أن تلقي بنفسها في اللهب، من أجل الذي تحب … أما من لا تحب، فهي تعرف كيف تجعله هو اللهب، وهو الحطب الذي يلقى في المدفأة؛ كي ينشر الحرارة في مسكنها المغطى بالجليد.

خيِّل إليَّ يا سيدتي، حقيقة، أن ريحًا باردة قد هبت على ما كان بينك وبين مسيو «هنري» في يوم من الأيام، وكان ينبغي أن أدرك أن قلبك يومئذٍ، كان في حاجة إلى الدفء، وكان ينبغي أن أعلم أن المكان المعدُّ لي إنما هو «الموقد»! … وأن هذا الوقود «الحي»، ينبغي أن يبقى حتى يحترق بأكمله، ويصبح رمادًا، وتنتهي مهمته؛ فتكنس ذراته، وتطرح في الهواء.

لست أحب يا سيدتي أن أتهمك ﺑ «الأنانية»، ولكن عتبي عليك لا يعدو أمرًا واحدًا صغيرًا: كان يحسن بك أن تخبريني بمهمتي؛ حتى أحترق على علم، وأفيد الغير عن رضا، ولكنك شئت أن تسخري بي من تحت «قناعك» حتى تكون لك المتعتان.

لا تحسي أني حانق عليك! … على النقيض … إن من حقك أن تصنعي الذي صنعت؛ فالحياة عندك متاع! … وإني أحب لك السرور من أعماق قلبي، وإني لست نادمًا على ذلك القلب، الذي قدمته إليك في احترام؛ فألقيت به في المدفأة! … إنه لك على كل حال … إنه كان لك، تفعلين به ما تشائين، وقد فعلت به ما شئت! … إنما الذي يؤلمني الآن هو حياتي بعد ذلك! … لقد أسرفت في الخيال، فجعلت منك كل جنتي، وعشت هذا الخيال، وليس من الهين عليَّ أن أعيش من فوري في شيء آخر! … إني مثل ذلك «الملحد»، الذي طُرد حديثًا من حظيرة «الإيمان» فتشرد بعد ذلك ﺑ «قلبه»، لا يدري أين يسكنه! … مثله مثل صعلوك من صعاليك الحياة، إذا طلع النهار انساق إلى ترَّهات العقل، حتى يجن الليل، فأوى ﺑ «قلبه» إلى حيطان «العقيدة» ينطرح فوق الأفاريز.

شأني الآن هكذا … أعلم أنك الآن شيء بعيد عني بُعد النجوم … ومع ذلك ما زلت أعيش معك.

منذ تلك الليلة الحاسمة في المطعم إلى اليوم، وأنا لا أنام قبل أن أسمع صوت المصعد، يقف عند «طابقك الرابع» وأصغي إلى صوت قدميك الصغيرتين، تخطوان في ذلك الممر الطويل، إلى أن يفتح بابك ويغلق؛ فأعلم أنك قد عدت، فأسرع إلى نافذتي أنظر إلى الضوء

المنبعث من زجاج حجرتك، وأظل على تلك الحال ساهرًا؛ حتى تطفأ أنوارك وتنامين، وعندئذٍ تنام عيناي؛ كأنما أنت التي تأذنين لهما في النوم! … لا تحسبي ما أقول مبالغة مني.

لا، إن كثرة الترقب واعتياد التربص، قد أكسبا أذني مرانًا غريبًا، على سماع أصوات المصعد، والخطوات والأبواب، مهما دقت ومهما اختلطت! … إني بأذني أستطيع الآن أن أميز وقع خطواتك من بين مئات … إني لم أرَ وجهك منذ تلك الليلة المشئومة؛ لأني لم أجرؤ على النظر إليك، ولكني أقنع بعالم الأصوات التي تصدر عنك، وتصلني بحياتك اليومية … العجيب في الأمر أني أعلم أن كل هذا حمق غير مجدٍ، ومع ذلك أفعله! … وأعجب منه أني أحصي عليك خفية كل حركاتك؛ فأعلم أنك تلك الليلة سهرت أكثر مما ينبغي! … لست أدري أين؟ … والليلة التالية عدت مبكرة على غير عادتك! … لست أدري لماذا؟

معذرة، هذا السلوك المعيب مني، إنما أنا رجل شريد، طُرد من قصر «الحب» السحري، فهو يلجأ في يأسه إذا جن الليل إلى الحيطان والأفاريز! … ولقد فكرت بالفعل في ترك هذا النزل والانصراف إلى شأني، وربما فعلت ذلك في يوم قريب! … لكني حتى الآن لم أقوَ على ذلك.

إني أفهم الآن موقف آدم عقب إخراجه من جنة السماء … إني أتخيله وقد لبث — بغير حراك — في الموضع الذي هبط فيه، ومرت به ليالٍ وأيام وهو ينظر إلى السماء، يرقب كل حركة فيها؛ إذا رعدت؛ فهو صوت أبوابها، تفتح لتناديه من جديد، وإذا لمع البرق؛ فهي ابتسامة رضا قد يعقبها انفراج المحنة … وإذا تساقطت الشهب؛ فهي همسات غضب ما زال قائمًا، وإذا استدار البدر؛ فهو شفيع وبشير بعودة الهناء القديم! … وكر الزمن، وآدم يتمرغ في مكانه بين اليأس والرجاء عند ذلك المهبط من الأرض، يمسح وجهه بأعتاب النعيم، إلى أن انتزعته غريزة «الحياة» من هذا القنوط الطويل، وأرغمته على النهوض، فقام يدب في الأرض ويعيش كما تعيش الأحياء من المخلوقات.

إني لست أعرف كم لبث آدم في الفردوس من زمن، وإني لأتوق إلى معرفة ذلك، ولكن الذي أعرفه على التحقيق أن جنتي أنا دامت أسبوعين، حسبتهما حسابًا دقيقًا، بالساعة والدقيقة! … منذ الليلة التي ذهبنا فيها معًا إلى مطعم «يو كاردي»، إلى الليلة التي خرجت فيها وحدي من مطعم «الأوديون»، أسبوعان من النعيم، هما كل زادي، وكنزي.

وبعد … فإني قد أطلت عليك كثيرًا، وليس من حقي أن أسلبك كل هذا الوقت؛ لتطالعي حماقاتي! … وليس من حقي كذلك، أن أنتظر منك ردًّا على هذا الخطاب الطويل؛ فحسبي منك — برًّا وكرمًا — أن تقرئيه في ساعة فراغ! … إنه على أي حال نوع من اللهو، وهو على كل حال صائر إلى «المدفأة»! … وإن كنت أرى أن «الشتاء» قد انقضى؛ فقد ظهرت عندك بشائر الربيع! … أمس رأيت على نافذتك آنية، يبسم فيها زهر «الكرز» في أغصانه الرفيعة الأرجوانية! … فذكرت أغنية «سان سانس»:

الربيع جاء
يحمل الرجاء
إلى قلوب العشاق.

ما أكذب هذا الشعر! … هذا الربيع، على غير أمل الناس فيه إنما هو الذي جاء ينتزع الرجاء … ومع ذلك، فإني أستقبل بوجهي نسماته العاطرة، ولا أرجو منه شيئًا كما يفعل الآخرون. إني أخشاه كما خشيه «حافظ الشيرازي»:

حبي نسيم الربيع،
قادني إلى الصحراء.
لقد حمل إليَّ النسيم عطره،
لكنه أخذ مني راحتي.
إلهي! … إن هذا الجمال
الذي لا قلب له …
ليفعم بالأسى قلوب عشاقه
لقد جثوت في الطريق الذي
عفرته أقدامها!
لكنها لم تدنُ مني؛
لقد ارتفعت توسلاتي وتنهداتي،
فأزعجت نوم الطيور والأزهار!
لكنها لم تفتح عينيها.
بالأمس مسَّ الكوب شفتيها،
وقال: إنه يعطي الحياة!

فقلت: لا بل هي التي أعارته الحياة
ومع ذلك، لو أني أمامها
مت محترقًا!
لما أطفأت لهبي بأنفاس شفتيها!

ما أصدق هذا الشعر! ... كل كلمة فيه؛ كأنها عاشت حياة آدمية.

أخيرًا أستأذنك في طرح القلم، فإن الفجر قد بدا من النافذة، وأخشى أن تغضبي لمجرد أني اختلست طيفك ليلة! ... أرجو مرة أخرى أن تغفري لي هذه الثرثرة ... فأنا لست خيرًا من «محسن» الآخر في شيء! ... أعني «الببغاء الصغير»! ... إني لم أعد أرى قفصه في نافذتك، فلعله حي يرزق! إني أيضًا حي أرزق ... لقد تحققت أمنيتي، وتساوينا في عين الحظ والنصيب ... «الببغاء الكبير» و«الببغاء الصغير»! ... ألا تذكرين؟ ... كل ما يحزنني من أمر «محسن» الصغير أنه هو أيضًا، وقد أصبح بعيدًا عنك، لا يستطيع هو أيضًا أن يحييك كل صباح بذلك الصفير المعتاد مرددًا: «أحبك! ... أحبك! ... أحبك!»

«محسن»

الفصل السابع عشر

صديقي

على الرغم من خطابك؛ الذي وجهت إليَّ فيه كثيرًا من اللوم، فإني ما زلت أدعوك «صديقي» ... أوَلسنا صديقين، ما دمنا نشكو من عين الداء؟ ... إني لم أستطع اليوم منع نفسي من الرد عليك؛ بل لقد هممت فعلًا بزيارتك هذا الصباح، غير أن خطابك وما فيه من صواب، وما جاء به من عتاب، قد أشعرني بقبح موقفي طول الأسبوعين «المعروفين»، ولقد عدت إلى حجرتي بعد تلاوة كلماتك، وأنا حقيقة متألمة، ولقد وددت لو لم أعش قط هذين الأسبوعين! ... إني خجلة، ولا أستطيع أن أقابلك وجهًا لوجه! ... كيف السبيل إلى محو كل هذا من ذاكرتك وذاكرتي؟!

نعم، لست أنكر، أني كامرأة تحب بكل جوارحها؛ قد كنت حقًّا «أنانية»! ... إني فكرت بالفعل ذات يوم في تصرفاتي، وتنبهت إلى ما فيها من ضرر وشر، ولكنني مع ذلك أقدمت على هذا الشر، آملة أنك لن تعجز عن الانفصال عني! ... نعم، أرجو أن تثق كل الثقة بأني عندما فكرت في كل هذا، لم يخطر لي قط على بال أن الأمر سيصل بك إلى مثل هذا اليأس.

صدقني، إني محزونة حقًّا لهذه النتيجة! ... وإني، من أعماق قلبي، أبدي لك شديد أسفي.

لكن ... ماذا عساي أستطيع أن أفعل؛ لأنال الصفح؟! ... إن آلامك تترك في نفسي ألمًا عميقًا! ... وأرجو منك أن تثق بذلك.

وبعد، أتقبل مني أن أمد يدي وأصافحك؟

«سوزي ديبون»

حاشية

سألتني عن الببغاء الصغير، وقلت إنك لم تعد ترى قفصه في نافذتي! ... هذا صحيح! ... إنه ليس عندي الآن؛ فإن أمر طعامه وشرابه، والالتفات إليه؛ لما يحتاج إلى وقت، لا أستطيع أن أكرسه له، فسمحت لنفسي بأن أهديه إلى «كلوتيلد» حارسة المقاصير، وقد أوصيتها بأن تُعنى به كل العناية؛ فكن مطمئنًا.

«س ...»

الفصل الثامن عشر

ترك «محسن» مسكنه في نزل «زهرة الأكاسيا» واستأجر حجرة في النزل الذي يقطنه صديقه «إيفانوفتش»، وكان الروسي قد اشتدت عليه وطأة المرض؛ فلم يشأ الفتى إزعاجه بكثرة الكلام فلزم هو أيضًا حجرته، لا يخرج منها إلا في الصباح، يقطع شوارع الحي صامتًا، ثم يعطف على باعة المأكولات يوم السوق، فيشتري «كيلوجرامًا» من الأرز وموزة واحدة، يعود بهما إلى حجرته حيث يهيئ غداءه بيده! … ذلك شأنه أكثر الأيام؛ فقد نضبت موارده من طول الإنفاق في المطاعم الجيدة ودور السينما والمشارب، وهو الآن لا يستطيع حتى تناول الأكل في مطعم الحي الحقير! … إنه الآن يدفع ثمن الأسبوعين اللذين قال إنهما «كل زاده وكل كنزه»، واللذين قالت «هي»: «إنهما شيء تتمنى لو يمحى من ذاكرتها وتود أنها لم تعشهما».

ووقف الفتى أمام النار في أحد أركان حجرته، يرقب فوران الماء في آنية الأرز «الألومنيوم»، وهو صامت مفكر شأنه في كل يوم من تلك الأيام التي مضت كأنها أعوام! … يتبخر الماء فيصب غيره في الإناء … ويتبخر فيصب غيره … والأرز لا ينضج؛ فيأكله آخر الأمر شبه حصى! … ما من مرة نضج معه هذا الأرز! … وما من مرة خطر له أن يسأل أحدًا عن طريقة طهيه، أو يغير هذا اللون من الطعام … لماذا يفعل ذلك؟ … ليس للأكل الآن مذاق في فمه؛ وإن «الكيلو» من هذا الأرز الرخيص ليكفيه خمسة أيام.

وكان لحجرة «محسن» الجديدة نافذة لم يفتحها قط منذ مجيئه ولم يدرِ على أي شيء تُشرف! … لا يريد أن يعرف … إن نافذة قلبه قد أُغلقت … وما من شيء يسترعي التفاته الآن، غير أسعار «الأرز» مدونة على البطاقات في الحوانيت، وغير عناوين الكتب القديمة ينظر إليها معروضة في المكاتب، دون أن يمسها … وكان أحيانًا يلمح فوق غلاف بعض الكتب فقرة أو عبارة أو بيتًا من الشعر، وضع على سبيل الاستشهاد، فيجعل

منه «نغمة»، يظل فكره يرتب عليها «تقاسيم» طول النهار. وكان يجد في هذا شيئًا من السلوى؛ غير أن بصره وقع ذات يوم على كتاب، جعل في رأسه هذا القول لشاعر ياباني:

إنما يبني الشاعر سعادته على الرمال،
ويسطر أشعاره فوق ماء الجدول الجاري.

نعم ... هنا كل البلاء الآدمي! ... ألا يمكن للنفس الشاعرة أن تقيم هناءها على دعائم أثبت قليلًا من هذه الرمال، التي تغرق فيها الإبل ... وتكتب أغانيها على صفحات أبقى من صفحات هذا الماء، التي تطويها في شبه طرفة العين أنامل الهواء؟

نعم هنالك سبيل واحد؛ لا ينبغي أن نبني شيئًا جميلًا فوق هذه الأرض! ... هذه الأرض المتغيرة المتحركة برمالها ومائها وهوائها.

وفطن الفتى إلى أن هنالك حقًّا نوعًا من الهناء، قد عرفه يومًا، هو هناء الصفاء! ... هذا الصفاء الذي لا يوجد إلا في الارتفاع.

وأحس الفتى أنه فعلًا؛ كأنه قد خف وزنًا، وكأنه يرتفع، وكأنه يبتعد عن هذه الأرض؛ ليعود إلى السماء، إلى سمائه التي كان قد هبط منها.

ولعل «الأرز» أعانه على ذلك؛ فإن «الزهد» هو سلم «الصعود».

وأقبل الفتى بعدئذٍ على غذائه الحقير الضئيل في لذة روحية، وبسمة راضية وضاءة، أنارت له مسالك نفسه المظلمة، وذكرته بسروره في صباه يوم كان يقتات بـ «الفول النابت»، ويجلس بكتابه كل يوم إلى جوار ضريح «السيدة زينب».

لم يكن شيء يعكر عليه صفاءه الروحي يومئذٍ غير حارس المسجد، ذلك الشيخ المتأنق، في عباءته الثمينة، وشعره المخضب بالحناء، وعيونه الكحيلة، ينظر بها إلى صندوق «النذور» بين يديه، وغير سجاجيد المسجد الغالية وثرياته الكبيرة. لماذا كل هذا؟! ... إن الفتى لم يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا إلا وهو فوق الحصير، حيث كان يتخذ مكانه دائمًا، لا في قاعة الضريح ذاتها حيث الفرش والرياش، وبقية تلك المظاهر الحمقاء لذلك الاحترام الكاذب، والخشوع الزائف ... إنما في تلك الردهة الخارجية، التي طرح الحصير على بعض أرضها، وترك البعض الآخر عاريًا نظيفًا، كالنفس النظيفة العارية! ... كان الفتى يحس هنالك أنه أقرب إلى روح السيدة الطاهرة.

وجعل «محسن» طول يومه هذا يقلب مثل هذه الأفكار، وعاوده شوق وحنين إلى المسجد، أو إلى بيت من بيوت الله. وتذكر الكنيسة التي دخلها يوم تشييع جنازة زوج

ابنة مدام «شارل»! … نعم، إن فيها أيضًا قد أحس يومئذٍ عين إحساس الصعود، لكن، تلك المراسيم والطقوس سرعان ما جذبته إلى الأرض، لتوقعه في ذلك الحرج، الذي وقع فيه ذلك اليوم.

نعم، كلما همَّت روح الإنسان نحو الأعالي كبلتها أكاذيب الإنسان، وأنزلتها إلى التراب. كل شقاء الإنسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئًا عظيمًا، ذا قداسة، بغير أن تلبسه ثيابًا مبتذلة مضحكة؛ من حمقها وزيفها وغرورها.

لماذا أراد الناس أن يجعلوا «الله» في حاجة إلى السجاجيد الفارسية يفرش بها بيوته؟! … و«السيدة» في حاجة إلى «النذور» والنجف والشمع؛ كأنها لا تستطيع النوم في الظلام، ثم ذلك «القمقم» الفضي في الكنيسة، وتلك الإشارات والعلامات، لماذا كل هذا؟! … حتى «الموسيقى العظيمة»، التي استطاعت أن ترفع الإنسان إلى بعض القمم، سرعان ما جعلوا لها ثياب سهرة؛ تُرتَدَى من أجلها، وقواعد وتقاليد؛ لا بد من مراعاتها! … وتنقلب الأمور على مر الزمن، فينسى الناس الأصل والجوهر، ويذكرون الفرع والعرَض … فإذا كل التفاتهم إلى ثياب السهرة دون «الموسيقى»، وإذا كل عنايتهم بالمظاهر والمجاملات دون الإيمان والعبادات. ولا يستثنى من بين هؤلاء إلا الفقراء التعساء الذين جاءوا حقيقة للصلاة، ومن بين أولئك — إلا الهواة — زبائن أعلى «التياترو»، الذين حضروا حقيقة من أجل الموسيقى.

إن «الإخلاص» للدين والفن، يستوجب «التجرد».

وذكر «محسن» «بتهوفن»، وتلك «السيمفونية الخامسة»، التي كان قد سمعها، وذكر ذلك الجو العلوي الذي عاش فيه ذلك اليوم؛ فحدثته النفس بالذهاب إلى «الكونسير».

نعم، فليذهب ولو أدى ذلك إلى حرمانه أكل الموز شهرًا بأكمله! … لا لزوم للفاكهة؛ إنه يستطيع أن يكتفى بالأرز أسبوعًا … وأشرق وجه الفتى لهذه الفكرة، وأحس كأن بردًا وسلامًا يهبطان قلبه؛ ويضمدان جروحه! … إنه الآن يشعر ببعض القوة، ولم يعد يخشى شيئًا! … هو الذي كان قد حرَّم على نفسه، خوف الضعف، ذكر الجميلة قاطنة نزل زهرة «الأكاسيا»! تلك التي أجهزت على أمله ذبحًا، بخطاب رقيق رقة حد السكين المسنون.

نعم، الآن … بقليل من الموسيقى يستطيع أن يعتصم بالسحب، ضد هذا الحب الأرضي، الذي وضع أنفه في الرغام.

وذهب «محسن» إلى مسرح «شاتليه» فوجد من حسن حظه «برنامجًا» موسيقيًّا حافلًا: «بارسيفال» و«سحر يوم الجمعة الحزينة»؛ لريتشارد فاجنر، و«السيمفونية التاسعة» لـ «بتهوفن»!

وكانت نقوده لا تسمح له بأكثر من مكان للوقوف بأعلى المسرح، فما تردد! وكان حريصًا دائمًا على اقتناء ذلك الكتيب الصغير الذي يباع في الردهة؛ فإن فيه تحليلًا دقيقًا في أكثر الأحيان للقطع التي تعزف، وبيانًا عن ظروف وضعها، ونبذًا من تاريخ مؤلفيها؛ فما أحجم عن شراء نسخة، وأسرع يتخذ له مكانًا، تحت مصباح من مصابيح الكهرباء، وجعل يطالع على عجل هذه السطور:

«لقد أراد «فاجنر» أن يصور بموسيقاه، قصة المسيح؛ إذ جاء يحمل إلى الإنسانية، التي نخرت فيها «الأنانية» ناموس «الحب»، الذي يخلصها من الخطيئة! ... ولقد جاء في خطاب خاص أرسله «فاجنر» إلى صديقه الموسيقي «لست»: كيف نبتت في خاطره فكرة تأليف هذه القطعة؟! ووصف المشاعر التي أثارتها في نفسه ذكرى الجمعة الحزينة في يوم من أيام الربيع، حيث كان في مدينة «زوريخ»: «لأول مرة استيقظت يوم الجمعة المقدس على شمس مشرقة، فنظرت إلى الحديقة حولي فألفيتها خضراء، تصدح فيها العصافير، فجلست على عتبة البيت أنعم بهذا السلام، الذي انتظرته طويلًا! ... وأثر في نفسي هذا الصفاء الذي يكتنف الأشياء، فتذكرت من فوري، أن اليوم هو يوم الجمعة المقدس! ... وعند ذاك، خطر لي أن أضع هذه القطعة!»

وانقطع «محسن» فجأة عن القراءة، فقد أطفئت الأنوار، ووقف «المايسترو»، ينقر بعصاه الرفيعة نقرًا خفيفًا على قمة مصباحه الأخضر؛ تنبيهًا للعازفين، وبدأت «الأوركسترا» تعزف مقدمة «بارسيفال»:

نغمة ترتفع منفردة أول الأمر، لا يصحبها شيء؛ كأنما هو صوت واحد يتكلم، وسط سكون السكون! ... صوت، في عين الوقت، إلهي وبشري! ... وتمضي تلك النغمة حاملة في أعماقها بذور الألحان الدينية، التي تتركب منها القطعة، إلى أن تقابلها تلك الأقوال المقدسة: خذوا، وكلوا؛ هذا هو جسدي! ... خذوا، واشربوا، هذا هو دمي! ... ثم يسمع من «الكواتيور» شبه رعدة مبهمة، بين عديد من الأنغام السريعة المتعاقبة، ورنين الصناجات المكبوتة؛ كأنما هو صوت طليق ممتد، يخفت شيئًا فشيئًا تحت قباب كتدرائية عظيمة.

واستمر الأداء، و«محسن» ليس على هذه الأرض، إلى أن أشار «الأستاذ» بعصاه إشارة الانتهاء، وانطلقت الأيدي بتصفيق كأنه الرعد، فتنبه الفتى، وقام الناس يدخنون في فترة

الاستراحة ويتحادثون ... وبقي «محسن» واجمًا في مكانه، ولمح على المسرح حركة دخول أفراد مجموعة المنشدين «الكورس» من سيدات ورجال ... ينتظمون في أماكنهم، فرفع الكتيب إلى عينيه، ليقرأ ما قيل عن قطعة «بتهوفن» ويهيئ نفسه للمثول بين هذا القلب العظيم، كي يسمع منه، ويفهم عنه! ... وقرأ الفتى هذه الصفحة؛ وبلغ فن «بتهوفن» في «السيمفونية التاسعة» غاية ما يستطيعه بشر في عالم البناء الصوتي. ولقد أخرج هذا العمل في تلك المرحلة من حياته — التي ابتُلي فيها بالصمم — كارثة جاء ذكرها في وصيته التي كتبها في أكتوبر سنة ١٨٨٢م، على أثر أزمة قوية من أزمات اليأس، تبدو من هذه الأسطر:

«إلى شقيقيَّ «كارل» و«جوهان» بتهوفن: أنتما يا من كنتما تحسبان أني إنسان حقود عنيد أكره الناس ... ما أظلمكما! ... إنكما لتجهلان السبب الخفي لكل هذا الذي ظهر لكما من أمري! ... إني، منذ الطفولة؛ كنت أحس أن نفسي وقلبي يتجهان بطبعهما إلى الخير! ... إني كنت دائمًا على استعداد للقيام بأعمال عظيمة، ولكن ... لا تنسيا أني، منذ أعوام ستة، أصبت بداء قاسٍ، زاده خطرًا عجز الأطباء! ... وأني ألفيت نفسي مرغمًا على العزلة قبل الأوان، وعليَّ إنفاق بقية حياتي بعيدًا عن العالم! ... ولقد حاولت أن أتجاهل أحيانًا ما نزل بي، ولكن التجربة المؤلمة كانت تذكرني دائمًا بأني قد فقدت السمع، ومع ذلك فإني لم أستطع أن أتجرأ مرة وأقول للناس: تكلموا بصوت عالٍ! ... صيحوا ... «إني أصم!» ... آه، كيف أعترف بهذا وأعلن للناس ضعف حاسة كان ينبغي أن تكون عندي أقوى مما عند جميع الناس؟! حاسة كنت أملكها — فيما مضى — على أكمل نمو، وأدق تركيب، وأرهف شعور؛ مما لم يتيسر مثله إلا لقليل غيري من الموسيقيين! ... كلا! ... لا أستطيع؛ لهذا أرجو أن تصفحا عني إذا كنت اليوم أهجر — كما تريان — هذا العالم، الذي كنت فيما سبق أمرح فيه بكل نفس راضية! ... إني لشديد الإحساس بمصيبتي، وإني من أجلها ينكرني الجميع! ... لم يعد الآن من حقي أن أنشد الراحة في صحبة إخواني الآدميين! ... انتهت مسرات المحادثات اللطيفة، ولذات المناقشات الرفيعة ... انتهت المصارحات القوية، وتبادل المناجاة الحارة؛ حالي الآن لا تسمح لي بارتياد المجتمع إلا بالقدر الذي تحتمه الضرورة القصوى! ... ينبغي إذن أن أعيش

مطرودًا منبوذًا! ... أي إذلال يجرح نفسي أحيانًا، إذ أرى إلى جانبي أحد الناس، يصغي إلى أنغام مزمار يُعزَف عن بُعد، لا أستطيع أنا أن أسمعها، أو أناشيد راعٍ، لا أستطيع أن أسمعها كذلك؟!»

يروي أحد أصدقاء «بتهوفن» أنه في صباح صيف ١٨٠٢م، استرعى التفات صديقه إلى راعٍ في الغابة يعزف على ناي من قصب ألحانًا شجية، فأبدى «بتهوفن» جهدًا مرهفًا، ليسمع شيئًا، فلم يستطع، ورفق به صديقه، فكذب عليه، وزعم له أنه هو أيضًا لا يسمع شيئًا، لبُعد الصوت عنهما، ولكن «بتهوفن» فهم الحقيقة وغرق في حزن عميق!

«مثل هذه الحوادث كانت تلقي بي على أعتاب اليأس، وكادت تغريني بأن أضع حدًّا لأيامي! ... ولكنه الفن وحده، هو الذي أبقى على حياتي ... آه! ... إنه ليشق عليَّ ترك هذا العالم، قبل أن أعطي كل ما أحس داخل نفسي من مخلوقات، لم تزل بعد في طور التكوين! ... آه أيتها القدرة الإلهية! ... إنك لترين من عليائك ذلك القناع السحيق، في أعماق قلبي! ... إنك لتعرفين أنه عامر بحب الإنسانية والرغبة في عمل الخير ... يا شقيقيَّ «كارل» و«جوهان» ... إذا انتهت أيامي، وكان طبيبي الأستاذ «شميث» لم يزل حيًّا، فالتمسا منه باسمي، أن يصف دائي وأن يرفق ذلك بصفحاتي هذه، فلعل الناس بعد موتي يصفحون عني على الأقل ... أما إساءتكما لي، فأنتما تعلمان أني قد صفحت عنها منذ أمد بعيد ... وكل ما أتمنى الآن، أن تكون حياتكما أيسر من حياتي، وأن تُعفيا مما رزئت أنا به من متاعب! ... وأوصيكما أن تعلما أطفالكما «الفضيلة»؛ فهي وحدها — لا «المال» — السبيل الحقيقي للسعادة! ... وإني أتكلم عن تجربة، فـ «الفضيلة» هي التي كانت كل سندي في محنتي، وإليها وإلى «فني» يرجع كل الفضل في أني لم ألجأ إلى الانتحار ... وداعًا! ... وليحب أحدكما الآخر.»

لقد كان «بتهوفن» يعيش إذن في ظلام السكون، عندما أخرج «سيمفونيته التاسعة»، ولقد احتمل كل ذلك في جلد — كما قال في وصيته — ولقد خضع لحكم القدر في شجاعة؛ كما يقول في مذكرات أخرى:

«الإذعان»، الاستسلام ... فلنعرف كيف نستخرج الدرس الخلقي النافع من أفدح المصائب والكوارث ... بذلك نجعل أنفسنا جديرين بمغفرة الله.»

لم يبقَ إذن لـ «بتهوفن» من الحياة، غير متعة «البصر»: عيناه وحدهما أمستا كل صلته بالطبيعة، وقد انحصر كل فرحه في إرسال النظر إلى وديان «فينرفالد» الخضراء،

يهيم في غاباتها ملتمسًا من الطبيعة العزاء، آملًا أن يجد في صدرها كل قوى الحياة والخلق، صائحًا في فضائها من أعماق قلبه تلك الصيحات التي وجدت مدونة في أوراقه:

«يا رب الغابات! ... يا ربي القدير على كل شيء، إني أحس البركات وأشعر بالسعادة في هذه الغابات، هنا كل شجرة من هذه الأشجار تسمعني صوتك! ... يا لها من روعة أيها المولى العظيم! ... هذه الأحراش، وهذه الوديان، تفوح برائحة الهدوء والسلام! ... هذا السلام الذي لا بد لنا منه؛ لنستطيع أن نتفانى في خدمتك.»

ووقف «محسن» عن القراءة في عجب وتأثر شديدين! ... لكأن عبيرًا يعرفه، يهب من طيات هذه الكلمات ... إن هي إلا كلمات صادرة من النبع الذي صدرت منه كلمات أنبياء الشرق.

وأُطفئت الأنوار، وتكلم «بتهوفن» ... إنه لا يتكلم كبقية الناس؛ لكنه يقيم من الأصوات عالمًا، لا تدخله ولا تسكنه غير الأرواح الخيرة المهذبة! ... وتحددت أركان تلك «السيمفونية» ووضحت للآذان والأرواح: هيكلًا عظيمًا، مشيدًا على أعمدة نورانية؛ من أنغام آلية، وأصوات آدمية.

ولم يتمالك «محسن»، وأخذته رجفة، وتصبب من جبينه العرق، نشوة عليا؛ عندما ارتفعت الأبواق النحاسية إلى جانب صيحة «الكورس»:

«قفوا متعانقين
أيتها الملايين؛ من البشر
أيها الإخوة؛
إن فوق النجوم أبًا
حبيبًا إلى كل القلوب.»

ولبث الفتى مشدود الأعصاب، متفصِّد الجبين؛ في شبه ذهول حتى عزف الـ «أليجرو» الختامي، والتقت أصوات الرجال والنساء بصوت «الأوركسترا»! ... فكأنما أستار السماء قد انفرجت ليصل إلى آذاننا غناء الحور والملائكة، مجتمعين في جنة الخلود يلقون نشيد الفرح، ذلك القبس الإلهي، فرح الأنفس التي تعيش في «الله».

الفصل التاسع عشر

نزل «محسن» الدرج؛ ليخرج كعادته إلى الطريق، يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل، فرأى باب حجرة صديقه «إيفان» مفتوحًا، وسمع سعاله، فعطف عليه، وضرب الباب مستأذنًا … فأذن له ودخل الفتى، فوجد الروسي جالسًا على سريره، أصفر الوجه، بين يديه كتب ثلاثة، فقال له: كيف حالك اليوم يا مسيو «إيفانوفتش»؟

– بخير.

– إنك تجهد قواك في القراءة، وأنت لم تزل مريضًا.

– اجلس!

قالها الرجل على نحو غريب، عجب له الفتى، ونظر بطرف عينه إلى الكتب، وقرأ في دهشة: «التوراة»، «الإنجيل»، «القرآن»!

ثم التفت إلى «إيفان» وقال: عجبًا! … إنك فيما أعلم لا تؤمن بشيء.

فقال الروسي؛ كالمخاطب لنفسه: أريد أن أعرف: كيف استطاعت هذه الكتب الثلاثة أن تعطي البشرية راحة النفس، وأن تغمرها في ذاك الاطمئنان؟! … نعم! … إني لا أومن بشيء، وإني أرى أحيانًا الموت دانيًا مني، وفي يده «خرقة»؛ ليمحوني كما يُمحى رقم كُتب بالطباشير فوق لوحة سوداء! … فأحتقر نفسي، وأزدري كل حياة إنسانية … آه! … ما أسعد أولئك المؤمنين، الذين يرون الموت مرحلة إلى حياة أخرى مجيدة جميلة! … إنهم لا شك ينظرون إلى الموت؛ كأنه عربة «بولمان» في قطار سريع، يذهب بهم إلى نزهة «آخر الأسبوع» … إن مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا الحياة الإنسانية إلا أنها شيء عظيم … لأنها تشغل الكون دائمًا، طول الخلود، إنهم لا يستطيعون أن يزدروا أنفسهم هؤلاء الناس.

– ولماذا لا تؤمن أنت أيضًا بالحياة الأخرى يا مسيو «إيفان»؟

– آه! ... ثق بأني أريد، فالرغبة والإرادة لا تعوزاني ... ولكن أمن الممكن لمثلي الآن أن يؤمن بالجنة والنار؛ كما كان يؤمن بها المسيحيون في عصر الشهداء؟! ... إنهم كانوا يتقدمون للذبح، ويلقى بهم بين أنياب السبع وهم يبسمون، راضين مقتنعين أن أبواب الجنة مفتوحة لاستقبالهم، مصغين إلى صوت المسيح يقول لهم من علٍ: «طوبى لكم؛ إذ عيَّروكم، وطردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين، افرحوا! ... وتهللوا؛ لأن أجركم عظيم في السموات.»

– ومثل إيمان المسلمين في عهد النبي فقد حدث في موقعة «بدر» التي نشبت بين المسلمين وأعدائهم من قريش، أن مسلمًا ترك القتال وانتحى يأكل بلحًا فسمع النبي يقول: «لا يقاتل اليوم رجل، فيُقتَل صابرًا محتسبًا، إلا أدخله الله الجنة.» فقذف الرجل بالبلح من يده، وقام يصيح: «أفما بيني وبين دخول الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟» ثم رمى بنفسه في أحضان الأعداء يقاتل حتى قُتل.

نعم، يخيل إليَّ أن مثل هذا الإيمان لا يمكن أن يعرفه الغرب اليوم! ... إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه الأديان، إنما أعطاها على النحو الذي ذكرنا، فتسلمها الغرب، وألبسها أردية موشاة بالذهب، ووضع على رءوسها التيجان المرصعة بالماس، وأقبضها صولجانات الجاه والسلطان والجبروت الأرضي! ... إن الكنيسة في أوروبا، كانت — في يوم ما — أعظم مؤسسة مالية، وإن نظامها الرأسمالي لأدق نظام ... وإن ثروتها الطائلة لتسند ظهر أقوى البيوت المالية، وتقوضها إذا شاءت في طرفة عين، فأين ذهبت كلمات المسيح؟! ... «ما أعسر دخول ذوي الأموال إلى ملكوت الله؛ لأن دخول جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله.»

– وأين ذهبت كلمة النبي محمد؟ ... «إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، فاخترت لقاء ربي والجنة.» ثم يقول: «اللهم توفني فقيرًا، ولا توفني غنيًّا ... واحشرني في زمرة المساكين.»

نعم، لا شك في أن المسئول عن انهيار مملكة السماء هم رجال الدين أنفسهم! ... أولئك الذين كان ينبغي لهم أن يتجردوا من كل متاع الأرض، ويظهروا في زهدهم بمظهر المنتظر حقًّا لنعيم آخر في السماء ... لكننا نراهم هم أول من ينعم بمملكة الأرض، وما فيها؛ من أكل طيب يكنزون به لحمًا، وخمرًا معتقًا ينضح على وجوههم الموردة، وتحت إمرتهم: السيارات يركبونها، والمرتبات يقبضونها! ... إنهم يتكلمون عن السماء، وكل شيء فيهم يكاد ينطق بأنهم يرتابون في جنة السماء، وأنهم متكالبون على جنة الأرض.

هؤلاء هم وحدهم الذين شككوا الناس في حقيقة مملكة السماء! ... إن كل ما بناه الأنبياء: بزهدهم الحقيقي، وجوعهم، وعريهم، مما أقنع الناس بأن هؤلاء الرسل إنما هم حقًّا ينتظرون شيئًا في العالم الآخر؛ جاء هؤلاء فهدموه! ... وكانوا هم أقوى دليل على كذب مملكة السماء، وخير دعاية لمملكة الأرض! ... وأنسوا الناس بانغماسهم في هذه الحياة، أن هنالك شيئًا آخر غير هذه الحياة.

– صدقت في كل هذا يا مسيو «إيفان» ... إن مسلك رجال الدين قد يشكك عامة الناس ... لكن أنت ... من كان مثلك على هذه الثقافة وهذا العلم ... إنك تستطيع أن تقيم إيمانك على لباب الكتب السماوية وحدها، بغير حاجة إلى أحد.

– وهذا ما أردت أن أفعله أيها الصديق، منذ ليالٍ وأيام ... غير أني ... ينبغي أن أصارحك ... لم أستطع ... لم أستطع مطلقًا.

– لم تستطع ماذا؟

– آه! ... لقد فسدت في رأسي كل تلك الصور الجميلة للحياة الأخرى؛ كما تفسد زجاجات الصور «الفوتوغرافية»، عندما ينفذ الضوء إلى حجرتها السوداء ... لست أدري سببًا لذلك ... يخيل إليَّ أنها الحضارة الأوروبية الحديثة، لا تسمح للناس بأن يعيشوا إلا في عالم واحد ... إن سر عظمة الحضارات القديمة أنها جعلت الناس يعيشون في عالمين ... لقد عرفت الحضارات «العلم»، و«العلم التطبيقي»؛ فالحضارة التي تشيد الأهرامات، لا يمكن أن تجهل العلوم النظرية والتطبيقية، ومع ذلك فإن ذلك العلم لم يفسد من الرءوس زجاجات الصور، التي تمثل الحياة الأخرى، تلك الحضارات أسميتها أنا «الحضارات الكاملة»، ولكن آسيا وأفريقيا ارتبطتا بالزواج، في طور من أطوار التاريخ، وأنتجتا مولودًا جديدًا: هذه الفتاة الشقراء — التي تسمى «أوروبا» — جميلة رشيقة ذكية؛ لكنها خفيفة أنانية، لا يعنيها إلا نفسها، واستعباد غيرها ...

وهنا قاطعه «محسن» قائلًا كالمخاطب نفسه: نعم «أنانية» لا تعرف غير حياة الواقع ولا يهمها شقاء الغير، ولا تحب الحياة إلا في ... الحياة.

فمضى الروسي يقول، دون أن يفهم ما جال في خاطر الفتى: نعم، نعم! ... هي كذلك حقيقة ... إن هذه الفتاة ترى المجد كله في شيء واحد: أن تضع الأصفاد في أرجل البشر، وبدأت أول ما بدأت بأبويها: أفريقيا وآسيا ... أنكرتهما، وحبستهما ... وانطلقت في الحياة، لا يحدها حد، ولا يقوم لها شيء ... إلى أن انتهى بها المطاف في بيت من بيوت الليل؛ تديره، وتشاهد فيه شجار السكارى، يحطمون الكراسي والكئوس! ... إني أخشى

أن تكون أوروبا موشكة على دفع الإنسانية إلى هوة … إنها لتثوب أحيانًا إلى رشدها، وترى مصيرها؛ فتقع في أزمة من أزمات الضمير: إنها لتستيقظ فيها الروح أحيانًا فتشك في نفسها، ويخيل إليها أن مدنيتها الخلابة ليست إلا بهرجًا، وأن علمها الحديث كله، وهو وحده الذي تتيه به على البشرية، في مختلف تاريخها، ليس — من حيث القيمة العملية — غير «لعب» من صفيح وزجاج ومعدن؛ قدمت للناس بعض الراحة في أمور معاشهم، ولكنها أخرت البشرية، وسلبتها طبيعتها الحقيقية، وشاعريتها، وصفاء روحها! … إن السكك الحديدية والطيارات قد أعطتنا السرعة وتوفير الوقت، ولكن ما فائدة ذلك؟ … ولماذا السرعة؟ … ولماذا توفير الوقت؟! … كأنما قد هبطت علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط! … ما نحن إلا قطرات ماء في نهر الحياة … ما حظنا من سرعة التيار، واندفاعه إلى البحر؟! … إنما حظنا الأكبر: في التمهل حول الأعشاب الناتئة، والسكون عند شواطئ الجزر، يداعبنا النسيم! … من الذي استفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من النهمين جمعوا في أيديهم الثروات، وسموا بالرأسماليين! … أما أنا وأنت وبقية الآدميين الوادعين، فقد خسرنا تلك الرحلات الطويلة، على ظهور الجياد أو الإبل؛ ننزل في كل مرحلة، ننعم بالطبيعة في أشكالها المختلفة، وفي أوقاتها المختلفة! … نعم، كسبنا السرعة، ولكن خسرنا ثروة النفس التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة، إنما اليوم نفرح بكلمة السرعة، وننسى أنها ليست سوى إغفاءة، نقضيها في عربة قطار، يمرق بنا في نفق مظلم، ويوصلنا في وقت قليل إلى حيث أردنا. ولكنا لا نعرف بعد ذلك ماذا نصنع بالوقت الباقي؛ فننفقه في الحمق والسخف … إن الطبيعة لتنتقم، وإن كل وقت يُسرق منها لا نجد له سوقًا ننفقه فيه، غير سوق النخاسة الخلقية، والانحطاط الآدمي! … كذلك «السينما» — كما يقول «دوهاميل» — لا تعطينا غير الطبيعة محفوظة في العلب، أو قصصًا سخيفة، تؤثر في أعصابنا تأثير الأفيون، «والراديو» وما يقدمه من قشور المعلومات ورديء الموسيقى … كل شيء في هذه المدنية الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الإنسانية العليا، وصفاتها الآدمية السامية، وقواها الطبيعية الكامنة؛ بتعويدها التراخي والكسل، باسم «الراحة الحديثة»؛ حتى نامت كما ترى النفوس والأرواح، وأصبحنا أمام ناس مصنوعين من «الألومنيوم»، مصيبة المدنية الأوروبية نزلت منذ استقرار الصناعة الكبرى! … هذه الصناعة التي شطرت المجتمع الأوروبي إلى شطرين: فئة قليلة كل همها جمع المال، وفئة كبيرة كل همها أن تقدم هذا المال في مقابل لقمة! … الفئة الأولى لا دين لها إلا الذهب، والفئة الثانية لا دين لها إطلاقًا ولا شخصية ولا نفس؛ لأنها آلات صماء … إن نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد أصبح محتاجًا إلى ثماني

عشرة عملية مختلفة؛ كما يقول «آدم سميث»، وأن العامل الواحد قد يقضي حياته كلها في صنع رأس الدبوس فقط، وآخر في صنع جزء آخر منه؛ كذلك الحال في صناعة الأحذية؛ فهي في بعض المعامل الأمريكية تقسم إلى أكثر من مائتي عملية، يخص العامل الواحد منها جزء واحد من عشرة أجزاء: كعب الحذاء مثلًا … معنى هذا أن العامل لم تبقَ له حتى تلك اللذة الفنية القديمة، التي كان يحسها ويرتاح إليها، وهو يصنع بيديه حذاءً كاملًا في حانوته الصغير … نعم! … حتى متعة الخلق الكامل، التي كانت تشعره بآدميته قد ذهبت؛ وأصبح الآن شأنه شأن المخرطة أو المطرقة أو المنشار؛ يخرط، أو يطرق، أو ينشر، جزءًا صغيرًا معينًا بالذات من هذا الدبوس أو ذاك الحذاء، وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته! … ما الفرق بينه إذن وبين الآلة! … لا فرق؛ إن الرجل الشرقي ما زال يحس آدميته بالنسبة للشيء الذي يصنعه، ويخلقه بيديه؛ آنية من الفخار كان، أو حذاءً، أو رداءً منسوجًا على نول، أو قطعة أرض يزرعها، ويجني ثمارها! … إنه لم ينقلب بعد — لحسن حظه — منشارًا آدميًّا، أو مخرطة بشرية! … استمع إلى الكاتب الإنجليزي «ألدس هكسلي» يصف أوروبا الحديثة: «إن أسلوب الحياة في العصر الحاضر ليدعو إلى الاشمئزاز؛ ذلك أن تطور النظام الصناعي قد أدى إلى نمو فجائي لتعداد أوروبا. ففي نحو قرن واحد تضاعف سكانها، ثم جاء بعد ذلك التعليم الابتدائي للجميع، فنتج عنه ظهور جمهور هائل من القراء، ونشط لهذا الجمهور أصحاب الأعمال، فأنشئوا صناعة جديدة: هي صناعة مادة القراءة! … هذه «المادة المقروءة» لم تكن — ولا يمكن أن تكون مطلقًا — غير بضاعة من النوع الرديء جدًّا! … لماذا؟ … تلك مسألة حسابية: إن عدد الكُتَّاب، أصحاب الموهبة الفنية، قليل دائمًا … ومن هنا نرى أن الجانب الأكبر للأدب المعاصر هو دائمًا غاية في الرداءة. ولما كان الأوروبيون قد اتخذوا عادة القراءة طول الوقت — وتلك رذيلة — كعادة تدخين «السجاير»، بل ربما كتدخين «الأفيون» أو تعاطي «الكوكايين» فإن أوروبا اليوم تتغذى بأدب من الطبقة العاشرة … وهذا كله حدث جديد؛ إذ في الماضي لم يكن الناس يعرفون غير قليل من الكتب حقيقة، لكنها كانت من أجود نوع. ولأضربن مثلًا بالإنجليز؛ فلقد كانوا إلى عصور قريبة يشبُّون على «الكتاب المقدس» وعلى «رحلة الحاج» لـ «جون بانيان»! … كتابان لا نظير لهما في نبل المعنى وصفاء الأسلوب! … أما اليوم فإنهم يشبون على «الديلي إكسبريس» وعلى المجلات والقصص «البوليسية». فالتعليم العام كان له هذه النتيجة السيئة: فهو بدلًا من أن يجعل الناس يقرءُون قليلًا الآثار الخالدة قد جعلهم يقرءُون دائمًا حماقات مخجلة! … إن الفن القديم قد يقصر أحيانًا

عن الإجادة؛ لأنه ساذج أو ناقص، ولكنه لم يكن يومًا قط مبتذلًا ... لماذا؟ ... لأن الأقدمين لم تهيأ لهم الأسباب أن يكونوا مبتذلين.

فأطرق «محسن» قليلًا ثم قال: نعم، ربما كان هذا صحيحًا! ... إن الأعرابية في خيمتها، تلك التي كانت لا تعرف ما هي القراءة والكتابة، كانت تتذوق الجيد من شعر جرير، والأخطل، والفرزدق، وتتغنَّى بأحسن أغاني مصعب، ونصيب، وإسحاق الموصلي، وتطرب للفجر الجميل، وتهتز نفسها لنسيم الأصيل، وتفضل الصحراء — بفتنتها الطبيعية — على سحر القصور الزائف! ... إن مستوى الذوق العام — وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقة — لا شأن له بكتابة أو قراءة.

فقال الروسي بقوة: على النقيض؛ إن فكرة التعليم العام للقراءة والكتابة كغيرها من بقية الأفكار الأوروبية الخاطئة التي روجتها أوروبا، وجعلتها بمثابة المبادئ الثابتة ثبوت العقائد، قد انقلبت فتاكة لجوهر الطبيعة البشرية؛ فالدهماء التي تعلمت الرموز السخيفة، ماذا اكتسبت؟ ... لقد حشيت أدمغتها بسخف وقاذورات، كما يقول «هكسلي»، وهبط مستوى ذوقها، ومع ذلك لم تتكوَّن لها شخصية ولا إرادة؛ فها أنت ذا تراها تنقاد كالخراف إلى كل من يقوم فيها ناعقًا أمام «ميكروفون»؛ فالدهماء هي الدهماء، ولا أصلح لقلبها وعقلها من وسائل الشرق الطبيعية في التهذيب: تعمير قلبها بالدين وعقلها بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة، وتركها تتصل بالطبيعة لا «محفوظة في علب»: الراديو والسينما والكتب. ولكن الطبيعة الحقيقية، أمنا الرءوم؛ تكشف لهم عن جمالها وأسرارها مباشرة، بغير وسيط من الرأسماليين المغامرين. وأصحاب الأعمال الأفَّاكين! ... تلك هي نتائج العلم التطبيقي عندما تُرك في أيدي الأوروبيين، وذاك أثره في النفس الإنسانية. انظر بعد ذلك أثره في جسم البشرية، تجد أنه استحال إلى قنابل وغازات خانقة وطوربيد وغواصات ودبابات، إلى آخر ذلك الإبداع والتفنن في وسائل الفتك بأجسام البشر؛ فالعلم التطبيقي في الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحًا وجسمًا! ... إن العلم، تلك «الماسة» العظيمة المتألقة؛ لم تضعها أوروبا في قمة عمامتها، لتشع نورًا وجمالًا، ولكنها وضعتها في سن مخرطة بخارية، لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم: كأس البشرية الممتلئ بماء روحها، ومادة جسدها! ... أما العلم الصرف، البعيد عن ضوضاء «الآلة»، ومطامع أصحاب المنافع، فإن الشرق هو الذي عرفه لذاته، كمظهر من مظاهر العبقرية الآدمية المفكرة، في تعطشها لمعرفة الحقيقة العليا! ... وهنا كل نبل العلم، وسمو غايته ... هذا العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتاتهما الشقراء أوروبا، سبائك ذهبية وأحجارًا

كريمة من الزمرد والفيروز والياقوت، فاحتفظت الفتاة ببعضه، وجعلته حليًّا لبهرجها، وهنا كل جمال أوروبا الفكري الباقي، أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقودًا تضعها في المصارف، وصنعت منها أغلالًا تستعبد بها العالم! ... ومع ذلك فهي لم تعرف التحلي بالعلم لذاته إلا منذ عهود قريبة! ... لا تنسَ أن أوروبا هي الوحيدة التي أعدمت في يوم كل علمائها حرقًا، واتهمتهم بالسحر والجنون، وخنقت حرية الرأي حتى في شئون الأدب والفن ... وجعلت من المسيحية، التي تبشر بالمحبة والسلام ... سلاحًا للفتك أمام محاكم التفتيش ... ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلًا من ذي قبل، فهي تجيد إخفاء حيوانيتها، تحت ريش صناعي يمثل أجنحة ملَك سماوي ... إن أوورربا اليوم في أزمة شديدة ... لا شك في أنها أخطر أزمة مرت بها؛ ذلك أنها قد تنبهت إلى أن ما زعمته مدنية عظيمة قد أفلس، وظهرت من تحت الريش أنياب الخنازير البرية! ... وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة، لا قلب لها ولا ضمير، وليست لها قيمة روحية ولا خلقية، وأن مآلها السقوط، ممزقة الجسد، تحت موائد المعربدين، في ذلك الحان الذي تشرف نوافذه من جهة، على المحيط الأطلنطي، ومن الجهة الأخرى على البحر الأسود! ... أيها الصديق! ... إلى الشرق! ... إلى الشرق! ... فلنرحل معًا إلى الشرق ... إن أجمل ما بقي لأوروبا إنما أخذته عن الشرق! ... لم تعد حياتي هنا! ... ماذا نصنع الآن ها هنا؟! ... حتى راحة النفس لا نجدها هنا ... إن العودة إلى الهدوء والصفاء هي في عودتنا إلى فضاء الصحراء، هناك نستنشق بملء رئتينا، لا دخان المداخن، ولكن رائحة السماء، هناك لا نجد تلك السحب الكثيفة، التي تحول بيننا وبين الله! ... هلم بنا؛ لقد يئست ... إن قليلًا من الأمل كان قد داعب قلبي؛ إذ تذكرت منذ أيام حكاية عودة الشاعر الفرنسي «كوكتو» إلى حظيرة الكنيسة، وأنت لا شك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق! ... لقد استنفد كل حياة الفكر والفن، وعرف المجد الأدبي، وانغمس في نهر الحياة اللاهية، وبلغ كل ما يستطيع أن يبلغه الفكر الشارد وحده بعيدًا عن الإيمان! ... فماذا حدث؟ ... تملكه السأم من الحياة، وشعر بالنقص في كيانه، وبالفراغ في قلبه؛ فضاق ذرعًا بأيامه، فألقى بنفسه القلقة في أحضان «الأفيون»، لعله يجد فيه الشفاء والراحة ... استمع إليه يقول في خطابه، إلى صديقه الفيلسوف «جاك ماريتان»: إن الأفيون ليحملنا إلى نهر الموتى، إنه ينسخنا، أو يحولنا إلى شبه مرج من المروج اللطيفة، ويجعل من جسدنا ليلًا، تتزاحم فيه النجوم، كأنها النمل، ولكن سعادتنا هي سعادة في مرآة نغدو فيها من رءوسنا إلى أقدامنا محض أكذوبة وإذا نحن كالمومياء تقف آلة الأجسام وتأبى الأعضاء أن تطيع، لا تؤثر فينا تقلبات الطقس،

وما نعود نشعر ببرودة أو حرارة! ... لقد كان مصورو «نابلي» يزينون حيطان المساكن، بما يسمونه «خدعة العين» ... إن «الأفيون» ليس إلا مصورًا طريقته «خدعة الروح»، إنه يزين حيطان الحجرة التي أدخن فيها بتصاوير تلذ لي وتريح نفسي، إن الأفيون هو طارد الحيرة والقلق ... إن الأفيون ليشبه «الدين» بالقدر الذي يشبه فيه «المشعوذُ» «المسيحَ»! ... إلخ ... إلخ. وأشرف «كوكتو» أخيرًا على الدمار، إلى أن ألقى بنفسه في أحضان الدين، هنا كان أملي الأخير أنا أيضًا؛ إذ اعتقدت أن الأوروبي المفكر، الذي شب على هذه المدنية، يستطيع أن يعود إلى الإيمان الحقيقي في الوقت المناسب، إلى أن قرأت هذه الرسالة المتبادلة بين «كوكتو» ومارتان فخامرني الشك ... إنها رسائل على غاية ما تكون من البراعة في الأسلوب، واتقاد الذكاء، ولكنها ليست أكثر من «قطع أدبية»! ... آه، إنهم يكتبون «أدبًا»، هؤلاء الناس — حتى اليوم — يوهموننا أن المسألة مسألة حياة أو موت، إن الفرق بين عبقرية الغرب الروحية وبين عبقرية الشرق الروحية؛ كالفرق بين «المشعوذ» و«المسيح»! ... خذ هذين الكتابين: اقرأهما، وأخبرني هل تصدق أن هذين الرجلين يعتقدان حقًّا بالسماء وما فيها؛ من جنة ونار، اعتقاد ذلك المسلم الذي قلت لي الآن: إنه ألقى البلح من يده، وجرى يعرِّض نفسه للقتل؛ واعتقاد أولئك الشهداء من المسيحيين الغابرين! ... إني أفهم أن يتكلم هؤلاء الشعراء الأوروبيون عن الدين والمسيح كلامًا كله إعجاب خالص! ... إني أيضًا أعجب الإعجاب الخالص بالأديان، ولكن الذي أريد ليس مجرد الإعجاب، كما نفعل أمام قطعة فنية، من عمل عظماء الفن أو الأدب أو الفكر! ... لست أريد الإعجاب الناشئ عن آلاتنا المفكرة، وما فيها من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة؛ إنما أريد الإيمان؛ إيمان القلب، الإيمان الأعمى بأن المسيح في السماء، وأن الله هو الله كما يتصوره البسطاء، وأن الجنة هي الجنة كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات! ... طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله!» آه يا صديقي، يا أخي! ... إن أوروبا كلها الآن ليست إلا رجلًا مفكرًا قلقًا حائرًا يتعاطى الأفيون ... إن «جان كوكتو» هو كل «أوروبا» في أزمتها الحاضرة! ... انتهت أوروبا «ولا شيء من داخلها يستطيع إنقاذها؛ لأن كل شيء يصل إلى «عقليتها» هذه، تحوِّله إلى أدب وأسلوب وزيف وكذب! ... إنما الإنقاذ من الخارج، إنما النجاة من الفضاء. إلى هناك ... إلى الشرق ... قم معي ... إلى الشرق! ... افتح هذه النافذة ... دع الهواء يدخل، اخلع عني هذه الأردية الثقيلة، هذه السحب الكثيفة تحجب عني.

وامتلأ فم الروسي برغوة وزبَد، ووضع يده على عنقه يمزق قميصه كأنما هو يختنق، واصفرَّ وجه «محسن»، ولم يبدِ حراكًا … ثم تنبه قليلًا من ذهوله، فصاح صيحة مدوية، وأسرع إلى الباب يطلب النجدة.

الفصل العشرون

اعتكف «محسن» بضعة أيام، علم خلالها أن صحة «إيفانوفتش» غاية في السوء، وجاء صاحب النزل ذات صباح يطرق عليه بابه ... ففتح منفزعًا: ما الخبر؟

– صديقك الروسي ...

– مات؟

– لما يمت بعد، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ طلعت الشمس.

– وكيف حاله؟

– لست أدري، هو يزعم أنه اليوم بخير، ولكنه مريض بذات الرئة؛ كما تعلم، داء لا يرحم ... أتتذكر ذلك اليوم عندما صحت مستنجدًا؟ ... لقد أغمي عليه أيضًا في المساء، وكان في حالة احتضار حقيقية، فاستدعينا له القسيس، ولكنه ما فتح عينيه قليلًا وأبصره حتى صاح فيه وفينا بصوت خائر لكنه ثائر: «أبعدوا عني هذا السكير بوجناته الموردة.» وتصور عندئذٍ أي حرج وقعنا كلنا فيه.

– على أي حال، قد بلغتك يا مسيو «محسن»، ولك أن تذهب إليه إذا شئت، أو لا تذهب.

وخرج صاحب النزل، تاركًا الفتى في مكانه مطرقًا مفكرًا ... ولم يجد «محسن» بدًّا من الذهاب إلى «إيفان» على الفور، فقام ومضى إلى حجرته، فوجده في فراشه، يتأمل أشعة الشمس الداخلة من النافذة، وتنبه الروسي لحركة دخول «محسن» فوجَّه بصره إليه، وأشار له بعين باسمة إلى شعاع ذهبي انعكس على الفراش: ما أجمل الشمس اليوم!

– نعم.

قالها الفتى في غير اكتراث، وهو يتأمل وجه الرجل الشاحب، وفرحه الذي يشبه فرح الأطفال السذَّج بهذا الشعاع فوق سريره، وساد الصمت، قطعه المريض بشبه همس: آه! ... النور ... النور يشرق من بلاد الشمس «ليغرب» في بلاد الغرب.

ثم التفت إلى «محسن» وقال له في صوت متداعٍ:

– اقترب يا صديقي، وأنهضني قليلًا ... فإني سئمت طول الرقاد.

فتردد الفتى خوفًا عليه: إني أخشى ...

– لا تخشَ شيئًا، ضعني بجوار النافذة، أعنِّي على الجلوس، حيث يغمرني نور الشمس.

فلم يرَ «محسن» بدًّا من تلبية رغبته ... فساعده على القيام، ومشى به إلى ظهر صندوقه الخشبي، حيث وضعه عليه وضعًا، فقال الروسي وهو يستنشق الهواء بما بقي له من رئتين: شكرًا لك ... أيها ... الصديق.

ثم أمسك بيد «محسن» بين يديه، ونظر إليه طويلًا وقال: أتعاهدني؟

– على ماذا؟

– أن نذهب معًا إلى ... الشرق؟

فتردد الفتى قليلًا، ثم نظر إلى كيان الرجل الواهي: نعم، عندما تسترد كل صحتك.

– إني أشعر اليوم أني قد شُفيت، إن صحتي اليوم تسمح لي بأن أسافر، اليوم بالذات! ... اسمع: إن لديَّ في هذا الصندوق مبلغًا من المال ادخرته يكفي نفقات السفر! ... وسأخرج اليوم أبحث عن مشترٍ لهذه الكتب وهذه الأمتعة ... لست في حاجة إلى كتب بعد اليوم، إنما أنا في حاجة إلى هواء ... وفضاء ... وصفاء.

وخشي «محسن» أن تنمو الفكرة في رأس هذا المريض، فيرتكب حماقة تسيء إلى صحته ... فلم يبدِ تحمسًا لما قال ... ثم أراد أن يثنيه عن عزمه، فقال: أرى أنك تقسو في الحكم على الغرب يا مسيو «إيفان». مهما يكن من أمر، فإن أوروبا قد وصلت بالعلم البشري إلى قمم لم يصل إليها ...

فلفظ الرجل ضحكة سخرية، وقال: من قال لك ذلك؟! ... أتعرف ما هو العلم أيها الفتى؟ ... إن العلم «علمان»: العلم «الظاهر» والعلم «الخفي». وإن أوروبا حتى اليوم طفلة، تعبث تحت أقدام ذلك «العلم الخفي»، الذي كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به حقيقة إلى قمم المعرفة البشرية ... أما العلم «الظاهر» وحده فهو كل ميدانها، إلا أن طاقة الآلة المفكرة محدودة، وأن كل وسائل العلم الظاهر هي أعضاؤنا وحواسنا

الظاهرة، وتلك ليس لها من الدقة ما يقتنص، غير الظواهر التافهة؛ من ظواهر الطبيعة والكون، مهما تعاونها الآلات والعدسات … كل هذا العلم الحديث الذي يبهرك، ليس في حقيقته غير «طريقة» و«أسلوب»! … نعم، إن الجديد حقًّا في العلم الأوروبي الحديث هو «أسلوب» التفكير المنتظم و«طرائق» البحث العقلي المرتب، أما أكثر من ذلك فلا … وأما أن نسمي مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة بحواسنا، وصولًا إلى قمم المعرفة البشرية، فتلك هي السخرية الكبرى! … إن قمم المعرفة البشرية هي في مجاهل ذلك «العلم الخفي»، الذي لم يدخل فقط عقل أوروبا؛ لأن وسائلها كما قلت لك لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة السطحية، ولا أقسو عليها إذا استعملت كلمة «السطحية» لأنها هي الحقيقة … إن عين العلم الأوروبي لا تقع دائمًا إلا على سطح الأشياء؛ ككل عين … إنها مدنية لا تدرك ولا تعترف إلا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق عقلها، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس. وإني أصر على أن هذه المدنية الكبيرة إن هي إلا «مدنية ناقصة»؛ لأنها لا تعرف الحياة إلا في «عالم واحد»! … أريد أن أهرب إلى البلاد التي تعيش في «عالمين»، تلك البلاد التي ارتفعت فيها المعرفة البشرية إلى قمم «العلمين».

وسكت الرجل قليلًا، ولمح «محسن» التعب على وجهه فقال له: لا تتكلم كثيرًا! … أرجو منك ذلك … حسبنا ما حصل في المرة السابقة.

– لن أتكلم، كفى كلامًا … ولكني سأفعل! … إلى العمل.

ثم تحامل ونهض قليلًا مستندًا إلى الحائط فأسرع إليه «محسن»: إلى أين؟

– أرتدي ثيابي؛ لأخرج فأبيع هذه الكتب … وأتهيأ للسفر.

– ليس الآن، ليس الآن … إنك متعب.

– دعني، أيها الشاب، سنذهب إلى الشرق، أريد أن أرى جبل الزيتون، وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم وماء …

– ونترك هذه البلاد … وهذه الحضارة … ونترك «بتهوفن»؟ … آه يا مسيو «إيفان»! … إنك تستطيع أن تقول كل شيء عن الغرب فأسمع لك، ولكن «بتهوفن» ها هو ذا نبي حقيقي! … ها هو ذا رسول للمحبة والسلام، خليق بأن يرفع مجد الغرب أبد الآبدين … وأن يطهر الإنسانية وأن ينير القلوب.

فالتفت الروسي إلى «محسن» قائلًا في قوة: «بتهوفن»! … «بتهوفن»! … نعم «بتهوفن»، و«هاندل»، و«موزار»، و«هايدن»، و«جان سباستيان باخ»، و«ميكل آنج» و«رفاييل» و«رمبرانت»، و«باسكال»، و«سان توماس»، و«كوبرنيك»، و«جاليليه»،

و«دانتي» ... إلخ ... إلخ ... كل أولئك إن هم إلا زهرات يانعات في حديقة المسيحية الغناء.

ثم وضع يده على كتف «محسن» المطرق الساهم: هلم إلى المنبع! ... إلى المنبع؟ ... إلى هناك ... إلى هناك.

ثم ترك الفتى في إطراقه، وتحامل متكئًا على الحائط، يبحث عن حذائه وسترته ... ومرت في رأس «محسن» خواطر، وبدت له صور من الشرق اليوم، فرفع رأسه وقال لصاحبه الروسي: ألم ترَ الشرق قط من قبل؟

فأجاب الرجل، وهو يضع حذاءه في إحدى قدميه: لم أرَه قط إلا في أحلامي ... ولكني لن أموت قبل أن أراه! ... فأطرق «محسن» مرة أخرى وهمَّ أخيرًا أن يرفع رأسه ليقول لـ «إيفان»: مهلًا، مهلًا أيها الصديق! ... إن ذلك المنبع الذي تريد أن تراه، وتلك الأنهار التي تريد أن تشرب منها؛ قد تسممت كلها! ... إن «الفتاة الشقراء» يوم حقنت فخذها بـ «المورفين» السام لم تترك أبويها سالمين؛ لقد قضي الأمر، ولم يعد هنالك نبع صافٍ؛ فإن الزهد قد ذهب كذلك من الشرق! ... وإن رجال الدين هناك يعرف بعضهم اليوم كذلك اقتناء السيارات، وقبض المرتبات، وتورد الوجنات من النعيم والمتع، وإن ثياب الشرق الجميلة النبيلة هي اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية، يثير منظره الضحك؛ كما يثيره منظر قردة اختطفت ملابس سائحين من مختلفي الأجناس، وصعدت بها فوق شجرة ترتديها، وتقلد حركات أصحابها! ... وإن التعليم العام للقراءة والكتابة، وحق التصويت والبرلمان، وكل هذه الأفكار الأوروبية قد أصبحت في الشرق اليوم مبادئ ثابتة، يؤمن بها الشرقيون إيمانهم — بل أكثر من إيمانهم — بمبادئ الأديان! ... وإنه لمن السهل أن تقنع شرقيًّا اليوم بأن دينه فاسد، ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن «الصناعة الكبرى» هي عجلة «إبليس» التي يقود بها الإنسانية إلى الدمار ... أو أن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء. وإنك قد تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس الشرقي عظمة السماء ... ولا تستطيع مطلقًا أن تقتلع منه عظمة «العلم الأوروبي الحديث». وإنه لمن اليسير أن تسفه عند الشرقي الآن «رسالة» الأنبياء ولا يمكن أن تسفه لديه «رسالة» القوة المادية الحديثة! ... بل من العجيب أن هذه الأفكار والمبادئ التي تعتبر في الشرق اليوم ثابتة ثبوت الآيات المنزلة، قد يناقشها الأوروبيون أنفسهم وينقضونها، وهي لا تزال حافظة عندنا كل قوتها! ... وإن المدفع قد ينطلق في أوروبا ضد بعض هذه الأفكار، ونرى ضوء لهبه، ولكن الصوت لا يصل إلى آذاننا ... لا لبُعد المسافة؛ بل لأن آذاننا لا تسمع، وقلوبنا لا تعي! ... لقد كانت «الحقنة» شديدة الفعل والأثر ... نعم، ولا أحد يدري

هل أوروبا حقنت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون ممزوج بسم ناقع، سرى — وما زال يسري — في شرايينه يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية في النفوس؛ فشبان الشرق اليوم — عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالًا للرجولة والبطولة — لم يتجهوا شطر «غاندي» ولكنهم اتجهوا بعيون؛ كأنها منومة تنويم المغناطيس شطر «موسوليني». ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والجلد والخشونة لباسًا، لم يضعوا على أبدانهم العارية القوية رداءً بسيطًا من القطن، يصنعونه بأيديهم؛ لكنهم ارتدوا القمصان الأوروبية ذات الألوان! … إذن حتى أبطال الشرق قد ماتوا في قلوب الشرقيين.

نعم، اليوم لا يوجد شرق! … إنما هي غابة على أشجارها قردة، تلبس زي الغرب، على غير نظام ولا ترتيب ولا فهم ولا إدراك.

لم يجرؤ «محسن» على أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه الروسي؛ فقد أدرك أن هذا الرجل، الذي لم يستطع شيء في الغرب أن يشفي نفسه القلقة الحائرة؛ قد وضع كل أمله في الشرق، وقد صنع للشرق في رأسه صورًا عظيمة هي كل أمله الباقي، وإن كشْف الحقيقة لعينه الآن أفظع طعنة يقتل بها هذا المسكين، فتركه في خيالاته، ورفع الفتى رأسه أخيرًا ليرى ماذا يصنع صاحبه، فألفاه ملقًى على ظهر الصندوق ورأسه إلى الحائط وفي إحدى قدميه الحذاء، فأخذه روع لمرآه وأسرع إليه: ماذا بك؟ … مسيو «إيفان»! … ماذا بك؟!

فقال الرجل في صوت كالحشرجة: فات الأوان.

– أي أوان؟

– اذهب أنت وحدك … إلى … هناك.

– أأستدعي لك الطبيب، يا مسيو «إيفان»؟ … أأطلب لك …

– لا … لا تفعل شيئًا … إني … أعرف نفسي.

ومال رأسه، وانطفأ النور الباقي من عينيه، لكنه تحامل وقال في صوت لا يكاد يسمع: اذهب أنت يا صديقي … إلى هناك … إلى النبع … واحمل ذكراي وحدها معك … وداعًا.

هنداوي